نيكوس كازانتزاكيس

فريدريك **نيتشه** وفلسفة

الحق و الدولة

ترجمة: سلام خيربك

دار الحوار

الكتاب: فريدريك نيتشه وفلسفة الحق والدولة.

تأليف: نيكوس كازانتزاكيس.

ترجمة: سلام خيربك.

تصميم وإخراج: لمى عبود.

الطبعة الأولى: *2021*

ISBN:978-9933-592-85-1

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع *www.daralhiwar.com*

ص. ب*1018* اللاذقية، سورية

هاتف: *+963 41 2422 339*

موبايل: *+963 938 406 804*

البريد الإلكتروني *daralhiwar@gmail.com*

نيكوس كازانتزاكيس

فريدريك نيتشه
وفلسفة الحق والدولة

ترجمة: سلام خيربك

دار الحوار

مقدّمة الترجمة العربية

قلّما عرف تاريخ الفلسفة والفكر شخصيةً إشكاليةً في كل أبعادها كمثل الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه الذي عاش بين عامي *1844-1900*م. رجلٌ لم تبقَ من صفةٍ لم تُطلَق عليه: الشاعر، الأديب، الثائر، المتمرّد، الخلّاق، المجدِّف، المنظِّر الأخلاقي، المعادي للأخلاق، العدمي، التشاؤمي، المكافح الأصيل ضد العدمية والتشاؤمية، الفيلسوف، "ليس فيلسوفاً بل أديباً"، العميق، المجنون... هكذا وسَمت طبيعة هذا الرجل وعقليّته الثقافة الأوروبية لأجيال عديدة. هكذا تركت بصماتها جمرات تضيءُ وتُلهب الاختلاف والتمايز والتمرّد والخروج في الفكر الأوروبي عقوداً كثيرةً من الزمن. وما تزال.

مولوداً في بلدةٍ صغيرة قرب لايبزغ، لأبٍ قِسٍّ وأسرةٍ شديدة التديُّن تفخر بعدد القساوسة بين أجدادها، سيرسم القدرُ بكل ما في الحياة من هزْلٍ ومُفارَقة سيرة أحد أشدّ محطّمي العقائد والتقاليد ومهاجِمي الأديان شراسةً وضراوة.

مِن طفلٍ يُربّى ليغدو مثلاً مسيحياً صالحاً (طفلٍ أطلق عليه زملاء الدراسة لقب "القسيس الصغير"، وفاق كل أقرانه في طفولته وأول صباه في اللاهوت المسيحي)، إلى "محطِّمٍ للأوثان" ومُفَنِّدٍ للمسيحية لا يعرف راحةً ولا سلاماً بوجود شيء "بمثل هذا السوء". فـ" المسيحية صُمِّمَت لرؤية العالم سيئاً وقبيحاً، فأصبح العالم سيئاً وقبيحاً"، و" الله قد مات".

ومِن طفلٍ نشأ على الأخلاق المسيحية – مِن رحمة ومودَّة وتضحية وإيثار وابتعاد عن كل عنف، وتبشير بالمَسْكَنَة- إلى مُبغِضٍ رهيبٍ لكل ما يمت لتلك الأخلاق بِصِلة، ومنظِّرٍ رهيبٍ لـ" أخلاق الأقوياء والقوّة" و"السادة"، ومُدينٍ مُرعِبٍ لـ" أخلاق الضعفاء" و"العبيد". إلى الحدّ الذي جرَّ عليه أشَدَّ تُهَمِ العنصرية قبحاً وإدانة.

قد تبدو هذه الكلمات التي قرأتموها حتى الآن صكّ إدانةٍ ووثيقة اتّهامٍ لا ترحم لنيتشه، ولكن: مَهلاً. فإذا علّمتنا الحياة شيئاً ما يمكننا الركون إليه، كان ليكون عدم العجلة في الاتهام والتسرّع في الحكم على ما يظهر من الأحداث والأحوال.

ونيتشه نفسه كان مدركاً أيّما إدراك لغرابة ما كان يمرّ به، وقسوة ما يحياه. وقد عبر لاحقاً عن تلك اللحظات المخيفة في حياته؛ لحظات الارتباك والحيرة والأسى والوحدة والحَسم في الوقت ذاته: "عندما مشيت هذا الطريق وحيداً، بدأت بالارتعاش. وبعد مرور مدة من

الزمن مَرِضت، واستُنزِفت. ولمع في روحي هاجس الخوف من أنني بعد هذه الخيبة محكومٌ بمزيدٍ من عدم الثقة والوحدة والازدراء لكل شيء".

فَمَن هو نيتشه؟

فريدريك ويلهلم نيتشه (*15* تشرين الأول *1844* - *25* آب *1900*) فيلسوف ألماني، ناقدثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث .

بدأ حياته المهنية في دراسة فقه اللغة الكلاسيكي، قبل أن يتحول إلى الفلسفة، بعمر الرابعة والعشرين أصبح أستاذ كرسي اللغة في جامعة بازل في *1869*، حتى استقال في عام *1879* بسبب المشاكل الصحية التي ابتلي بها معظم حياته، وأكمل العقد التالي من عمره في تأليف أهم كتبه. في عام *1889*، وفي سن الرابعة والأربعين، عانى من انهيار وفقدان لكامل قواه العقلية. عاش سنواته الأخيرة في رعاية والدته وشقيقته، حتى توفي عام *1900*.

كان من أبرز الممهّدين لعلم النفس وكان عالم لغويات متميز. كتب نصوصاً وكتباً نقدية حول الدين

والأخلاق والنفعية والفلسفة المعاصرة المادية والمثالية الألمانية. وكتب عن الرومانسية الألمانية والحداثة أيضاً، بلغة ألمانية بارعة. يُعدّ من بين الفلاسفة الأكثر شيوعاً وتداولاً بين القراء.

هذا موجَزٌ مختصرٌ لحياة نيتشه. والكتاب الذي بين أيدينا هو أطروحة قدّمها الكاتب اليوناني الشهير " نيكوس كازانتزاكيس" لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، في باريس عام *1909*م.

وتناوَل فيها آراء نيتشه حول أسئلةٍ وقضايا من مثل:

1- بعد فشل المنظومات الأخلاقية القديمة المستندة إلى الدين (بسبب نتائجها السيئة على حياة الناس في المجتمعات من جهة، والضربات القاصمة التي وجهتها إليها الاكتشافات العلمية من جهةٍ أُخرى):

هل الإنسان (ابن الطبيعة، كما يقول العِلم) مُلزمٌ أخلاقياً باتباع قوانين الطبيعة ومنطقها؟ أي هل يجب عليه بناء منظومته الأخلاقية استناداً إلى ما يقول العلم إنّه هو الحقيقة والأصل (منطق الطبيعة وقوانين الوجود والعلاقات فيها)؟ أم أنّه قادر على جعل نفسه استثناءً وطرح منظومة أخلاقية تستند إلى رأيه هو - بمعزلٍ عن أصل نشأته ومنطق وجودها؟

2- مع انهيار التصوّر القديم للعالم بكل أبعاده تحت هول الاكتشافات العلمية: أين موقع الإنسان في هذا العالم؟ كيف له أن يعي وجوده فيه؟ كيف له أن يفهم المعنى في عالَمٍ يبدو كل ما فيه هو نتاج ضرورةٍ مصادفيّة عمياء؟ وإلى أي أسس يجب أن يَسنُد تنظيم العلاقة بين غرائزه الفردية ومصالحه الاجتماعية؟ إلى العِلم؟! إلى

الدِّين المكسور؟! إلى بناءٍ عقلي يبتكره هو بلا أي أساس منطقي؟! أين هي البداية التي يمكنه القول إنَّ النتيجة لحقَت عنها، وبالتالي: هذا مبرري لمطالباتي بحقوق كذا وكذا، ورفض كذا وكذا؟!

3- ما العمل في وجه كل هول هذا الانهيار في الوعي والتصورات والفهم والمنظومات التي ترسم شبكةً بدونها لا نعرف طريقاً للحركة ولا للارتقاء؟ ما العمل أمام كل هذه الخيبة والضياع والإحساس العميق المؤلم بالوحدة وعدم الثقة والخذلان من قِبَل تلك المنظومات والشبكات؟ وكيف لنا ألا نَنهار تحت وطأة كل هذا الخذلان والخيبة؟ كيف لنا أن نقف تحت الشمس، ونجرؤ على النظر إلى الأمام والأعلى؟

4- ما سبب كل هذا الانحدار والانهيار؟

5- ما هو موقع الإنسان في الكون؟ ما هي رسالته؟

6- ما موقع مبدأ المساواة والأخوة الإنسانية في منظومتنا الأخلاقية والمعرفية؟ هل هو من القوانين الطبيعية؟ وهل هو مفيدٌ لتطورنا وارتقائنا نحو الأسمى؟

7- وإذا انتقلنا من الدائرة الأوسع إلى الأصغر "العائلة": ما هي طبيعة الرجل والمرأة حقاً؟ ما هو موقع المرأة من الغريزة الجنسية وفكرة المساواة، والمطالبة بالحقوق؟ ما هو موقعها من العائلة ومؤسسة الزواج وحالة الإنجاب؟

8- ما هو أصل الدولة وطبيعتها؟ ما موقعها من الأخلاق؟ من العدالة؟ من المساواة؟ من العنف؟ من الأقوياء؟ من الضعفاء؟

9- ما هو جدول القِيَم القديم السائد حتى لحظة طرح هذه الأسئلة؟

10- ما هو جدول القِيَم الذي يترتَّب على أجوبتنا لهذه الأسئلة؟

(إن هذين السؤالَين الأخيرين بالذات هما من أهم محاور وعي نيتشه وفلسفته ومنظوره للحياة)

11- ماذا عن المفاهيم الثلاثة الرئيسة التي تحكم الحياة الداخلية والعامّة للبشر والعائلة والدولة: الدِّين والأخلاق ومفهوم الحَق؟ هل هي مفاهيم تفيض بالخير والمعرفة والفائدة؟ أم أنها السبب الكامن خلف كل هذا الاحتضار والانحطاط والانهيار؟

12- ما هو أصل الأخلاق؟ وما الفائدة الحقيقية منها؟ وما هي حقيقتها في العمق؟ ما معنى أن أكون " أخلاقياً "، وأن أسلُكَ وفقاً لما تقتضيه " الأخلاق"؟ وهل هو أمرٌ جيّدٌ دوماً؟ هل هو حالة ساميةٌ أو صحيّة دوماً وحقاً؟ هل هناك قانون ثابت للأخلاق؟

13- هل هناك من قانون يُصلح العمارة البشرية المعاصرة ويعيد صياغة العلاقات المتبادلة فيها بشكل صحيٍّ يمنحها العزم والطاقة والحيوية؟ ما هو؟

هذه بعض الأسئلة التي لامستها وقاربَتها أطروحة كازانتزاكيس حول منظور نيتشه للحق والدولة. مع إضاءات أُخرى مفيدة عديدة حول

طبيعة شخصية هذا الفيلسوف المثير للجدل وزمنه. قد تتنوع حساسياتنا لأجوبة نيتشه على هذه الأسئلة، وقد يختلف كثيرون عليها، ويُصدَم البعض الآخرون من حدّتها وغرابتها، إلا أنّ ما سيُفاجئنا في هذا الكتاب حقاً هو مدى العمق ومستوى الوعي الذي ستستثيره تلك الأطروحات لدينا نحو أسئلةٍ تمسُّ كل تفصيلٍ في حياتنا اليومية والخاصة والاجتماعية والعامة. سنجدُ مع هذا الكتاب أنفسنا فجأةً في خِضَمّ وقلب التساؤلات الأكثر أصالةً وعمقاً، والتي تضعنا وجهاً لوجه مع جوهر القضايا الحاسمة في كل تفصيلٍ من حياتنا وعلاقاتنا.

كتابٌ جميل وهام ويستحق التفكُّر والتأمل حقاً. وقد أجاد كازانتزاكيس في سرد رؤياه عبره كما العادة دوماً معه في جمالياته كافّة.

المُفاجئ حول هذا الكتاب هو أنّ كازانتزاكيس لم يأتِ على ذكره في سيرته الذاتية "تقرير إلى غريكو"، ولا في أي مؤلّفٍ أو في حوار آخر معه. مما أثار العديد من التساؤلات وما يزال: هل يعود ذلك إلى أن كازانتزاكيس قد اشتُهِرَ بين الناس كـ "روائيٍ"، وبالتالي لم يعُد لهذه الأطروحة من مكانٍ في سيرته العامة (إذ لم يعد يرى نفسه كباحث أو فيلسوف، بل كروائي حصراً)؟ أم أنّ حقيقة إهمالها تعود إلى رفض هذه الأطروحة بسبب "الثورية المفرِطة" التي تتخللها قياساً بزمنها(تماماً كما اعتقد أحد المقدِّمينَ لإحدى طبعاتها)؟ أمّ أنها كانت مجرد مرخلة في شباب كازانتزاكيس عَبَرت، ولم يعُد ينظر فيها أو إليها؟

تخميناتٌ كثيرة ربما تخامرنا ونَحن نقرأ هذا الإبداع - الذي اعتدناه لاحقاً - من كازانتزاكيس الروائي الاستثنائي، لكنّ ما لا شك فيه أبداً أنّ هذه الأطروحة هي لحظة في تاريخ كازانتزاكيس، في تبصُّرِ روحه وعينيه في الناس والحياة والطبيعة والوجود. ومَن يقرأها سيلمسُ بين ثناياها "روائي المستقبَل"، المبدِع الحساس، والرائع العظيم.

تنويه: يتكون القِسم الأخير من هذا الكتاب في نسخته الإنكليزية من مُلحَقٍ كبير من الهوامش والتعليقات على الكتاب. وقد قمنا في الترجمة العربية له باختيار المفيد منها للقارئ وحسب، خيفةَ الإثقال على القارئ بلا سببٍ ولا موجِب.

سلام خيربك

مقدّمة الترجمة الإنكليزية

وُلِدَ نيكوس كازانتزاكيس – أحد أشهر المؤلّفين اليونانيين في العصر الحديث- في *18*/شباط/*1883* في مدينة ميغالوكاسترون (إيراكليون في أيامنا هذه)، في كريت. وقد بقيَ مؤلّف "الإغواء الأخير للمسيح" و"الشغف الإغريقي" و"زوربا الإغريقي"، والملحمة الإغريقية الهائلة "الأوديسّة" شخصاً إشكاليّاً طيلة حياته كلها. وستبقى الشهادة الأبدية على أصالة كازانتزاكيس ورفعة روحه وضراوة التهجّم عليه من قِبَل اليمين واليسار على قدم المساواة، وحدّة المعاملة التي تلقاها من كل من النقاد الدينيين والعلمانيين، والنقمة عليه من كل من محبي الجَمال والمُرَبين، وشجبه من قبل مثقفي المقاهي والنقاد الفنيين في الوقت ذاته. وقد استمرَّ تأثير كازانتزاكيس أمداً طويلاً بعد أن طوى النسيان نقاده بكل رحمة وجلال. ولا يجب أن يُفهَمَ هنا أنّ كل ذلك النقد كان ظالماً ولا منطقَ فيه. إذ كانت لغة كازانتزاكيس وأطروحاته (ومرارة إلحاحها الواضحة حتى في الترجمة) تغوص عميقاً في النهايات الشديدة الخطورة لهجاء إنسانيّةٍ مفجوعة. وقد تمكن كازانتزاكيس بحكم طبيعة أطروحاته – بقدر حكم التعاطف والشفقة الهائلة فيها-

من إثارة ردود فعلٍ متنوعة مختلفة نحوها. ومتشاركاً قدر كل كاتب إشكالي؛ كان من المحتوم على كازانتزاكيس تحريض أحاسيس قوية في كل من قرأه. لقد غدا عمل كازانتزاكيس عالميا وأبدياً، بينما ظلّ الجدال حوله مؤقتاً وعابراً.

لقد تعاظم جَمعُ المعجبين بكازانتزاكيس منذ وفاته في عام 1957م خصوصاً. وتلفت الانتباه حقيقة أنّ روح كازانتزاكيس لم تخضع للمقلدين وأعلام الدعاية (البروباغانديين) هواة اعتلاء كل موجة نجاحٍ جديد: عمل كازانتزاكيس، فكره، وأسلوبه الأدبي الذي يتحدّى ثالوث اللعنات الشهير "التقليد، العقائديّة، والتعليمية".

يُعتبَرُ كازانتزاكيس شخصاً محوريّاً في الأدب اليوناني والعالمي الحديث (بكل جدارة). لهذا فإن تعاظُمَ الاهتمام بالتأثيرات الرئيسة التي ساهمت بتشكيل هذه الروح الفذة في أيامنا هذه هو أمرٌ مفهومٌ تماماً. الأمر الذي يذكِّرنا برواية كازانتزاكيس للقائه القدري بنيتشه في الفصل الثلاثين من سيرته الأدبية "تقرير إلى غريكو". وها هي ترجمتي لذاك النَص:

"ذات يوم وبينما كنت جالساً في مكتبة سان جينيف مستغرقاً بكليتي في المطالعة، وإذا بامرأة شابة تقترب مني وتميل عليَّ وهي تحمل كتاباً مفتوحاً وفي يدها صورة رجلٍ يختفي اسمه تحتها. وقفت المرأة بقربي هكذا محدِّقةً فيَّ وكل ما في ملامحها يشي بعدم التصديق:

"مَن هذا؟"، سألتني مُظهرةً الصورة لي.

هززت كتِفَي: "وكيف لي أن أعرف؟!".

"لكنه أنتَ، سيدي!" قالت الشابة. "إنها صورتك كما لو في المرآة. انظُر إلى الجبهة، إلى الحاجبين الكثَّين، إلى العينين الغائرتين، الاستثناء الوحيد هو أن لصاحب الصورة شارباً كثيفاً متدلّياً ليس لديك!".

التفتُّ بعَينَي مستنفراً: "مَن هو إذاً؟"، ومحاولاً إبعاد يدها لأرى الاسم.

"لم تعرفه؟! أهي أول مرة تراه فيها؟! إنه نيتشه".

"نيتشه! لقد سمعت باسمه قبلاً، لكني لم أقرأ له أي شيء حتى الآن".

"ألم تقرأ *ولادة مأساة*، *زارادشت*، *عَن العَود الأبدي*، الـ*أوبرمِنش*؟".

"لا شيء من هذا. لا شيء". بقيتُ أهز برأسي خجِلاً" لا شيء".

"انتظرني هنا للحظة"، قالت وهروَلت مبتعدة. لتعود بعد قليل مُحضِرةً "زارادشت" في يدها.

"تفضَّل"، مدت يدها بالكتاب مبتسمةً. "ها هو طعام الأُسود لعقلك، إذا كان لديك عقل، وإذا كان ذاك العقل جائعاً".

لا ندري إلى متى دامَ ذاك الأثَر، لكن ما نعرفه حقاً هو أن كازانتزاكيس ذكر تلك القصة في سيرته "تقرير إلى غريكو"، وأنّه كتب أُطروحةً حول فلسفة نيتشه السياسية والقانونيّة. تلك الأُطروحة هي ما يُسعدني تقديمه إلى الجمهور الذي يتحدّث الإنكليزية.

اليونان الحديثة هي أُمّة مهووسة بميراثها البلقاني المثير للجدال. حالمةً بمجدِ ما كان هيلاس القديمة ذات يوم، وبأحفاد الإمبراطورية

البيزنطية التي كانت تتحدث اليونانية، لم يمضِ على استقلال البلد الحديثة بعد ثورة قصيرة ودموية ضد الإمبراطورية العثمانية المتهاوية العاجزة سوى أمد قصير. وقد غدا ميراث اليونان منقسماً بقدر ما هي عليه الروح اليونانية من تأرجُحٍ بين الإنسانوية القومية القديمة والأورثوذوكسيّة المسيحيّة الصوفيّة. وما يزال النقد الثقافي اليوناني الحديث يتأرجح بين عويلٍ سفيه لماضٍ عثماني غير جدير وتَوقٍ كئيب لمستقبَلٍ مؤجَّل بلا نهاية، بين إشارات شبه سيرسية[1] إلى أفكارٍ حديثة وإصرار متردد على جدلٍ مسيحيٍّ يونانيّ أبدي، بين عقلانية تكنولوجية "غربية" غريبة وسعيٍ خلف روحٍ يونانية حقّة. ليس هنالك ربما أي مؤلّفٍ يوناني آخر غير كازنتزاكيس التقطَ وجسَّدَ التوترات المميّزة للثقافة اليونانية في العصر الحديث بكل تلك الدقة وذاك الذكاء. لقد جسّد هذا المؤلف الكريتي في شخصه كل ذاك التصوّف الأصيل، وبدا – في الوقت ذاته- مرتاحاً بلا نهاية مع الحداثة والأفكار الغربيّة. كما كان محرّضاً ومجدِّفاً لاذعاً شريراً في كل ما يتعلّق بالقضايا الدينية، وبدا كما لو أنه روحاً إصلاحيّةً سبق للنفعية البنتامية[2] أن بشَّرَت بها، في الوقت ذاته الذي لم يكن هنالك مَن هو

1.سيرسية : نسبةً إلى "سيرسي"، ساحرة يونانية احتجزت أوديسيوس في جزيرتها، وحوّلت رجاله إلى إوَز.(المترجم).
2. البنتامية: نسبةً إلى "جيريمي بنتام". وهو فيلسوف وقاضي ومُصلح اجتماعي إنكليزي عاش بين عامَي 1748 و1832م، وعُدَّ مؤسِّس المَهب النفعي. وقد قال بنتام إن المبدأ الذي تستند إليه فلسفته هو أنّ: "معيار الصواب والخطأ يكمن فيما يمنح أكبر عدد من الناس أكبر كَمٍّ من السعادة". وأصبح أهمُّ منظِّرٍ لفلسفة القانون

أبعد منه عن الأخلاق النفعية. كان كازنتزاكيس قادراً بمفرده على استكشاف وتجسيد كل الجوهر الصوفيّ الكامن في روح التديّن الحسّي الأورثوذوكسي اليوناني. وكان لديه إرثٌ ثقافي أصيل من الاختلاف مع بروتستانتية نيتشه. وفي الوقت الذي كانت تهجّمات نيتشه ضدّ المسيحية تعلو بكل قوّتها، وكانت تفاؤلية نيتشه العِلمية المبكرة تضيف لمسةً سطحية غير واضحة لذاك الإشكال والتساؤل، كان كازانتزاكيس هو الشخص الذي وضعَ تبصُّرَ نيتشه السايكولوجي موضع الممارَسة، وذلك عبر انخراطه في سِجالٍ نبيلٍ مع المسيح. سجالٌ يحتفي بالخصم ويُبَجِّلهُ، مُفسِحاً الفضاء أمام محتوىً أكثر روحيّةً ممّا يمكن للإيمان التّبَعي أن يهبه.

يمضي نيتشه الناضج (والمتجسّد في رائعته: جينالوجيا الأخلاق) في تبصّره السايكولوجي لينقل لنا رسالةً لا دينية – وذات جوهرٍ إنساني عميق-، يحق لنا بعدها نسب منبعها له بلا أي تردد. ومع ذلك، كان نيتشه هو مَن قال إنّ الفَن هو أكثر المساهمات البشرية أصالةً في العالَم، وأدانَ –عائداً في ذلك إلى الفلسفة قبل السقراطية- العقلانية السقراطية والواقعية الأفلاطونية المتعالية. ومن سخرية الأقدار أن نيتشه احتاج في ذلك للاعتماد على التبصُّر السايكولوجي – وهو معرفةٌ اختزالية طموحة - بدلاً من الذهاب مباشرة إلى الفَن كمركَزٍ

الأنغلو اميريكية. نادى بأوسع مدى من الحريات طُرِحَ حتى أيامه، وكان من اهم تلامذته الفيلسوف القانوني الشهير" جون ستيوارت مِل"..(المترجم).

لتلك المسألة. ولربما كان ذاك هو ما يدور في ذهن نيتشه عندما مزحَ – وهو يتثاءب على أبواب الجنون- بغموضٍ حول فكرة أن العالم سيتذكّره بفضل مؤلفاته الموسيقية بدلاً من أن يعتبرها تافهة لا تستحق الذِكر! وفي ذاك السياق، ارتقى كازانتزاكيس إلى آمال نيتشه عندما قام بنبذ التساؤل السايكولوجي المواجِه، ومضى نحو مواجهةٍ أدبيَّة محضة مع عفاريت الأعماق.

يقدّم كازانتزاكيس عدة مفارَقاتٍ هامّة وحاسمة: على الرغم من كره الكنيسة اليونانية ولعنها له، استمرَّ شغفه بالتجاوب بعمق مع كل حساسية دينية سحيقة بدلاً منه مع القطيعية المتعَبة للثقافة المدينية. ومع كونه عدواً للدين، هو متديّنٌ أكثر بكثير من معظم أولئك المكرّسين المنتفخين غروراً بتدينهم. رحالة أبدياً، وصاحب البيت في لغاتٍ كثيرة، أصبح كازانتزاكيس أسلوبياً متفوّقاً في تعبيرٍ أدبي يوناني فريدٍ وغير قابل للتقليد أبداً، وهو من إبداعه وحده بكل جدارة.

لكنه وفي الوقت ذاته بقي خارج الزاوية الهيلينية الضيقة بشكلٍ غير قابل للفهم. أوروبيّ الأوروبية، ومع ذلك غريبٌ كعيّنةٍ روحية نادرة. شخصٌ صوَّفَ الأوروبين، ومع ذلك تفرّد بنقمة الكتاب اليونانيين الموجعة كنقمة قرويٍ لا أمل بصلاحه. ومع اقترابه كثيراً من اعتناق كل أخلاق زمنه العلمية والعقلانية والإيجابية السائدة، سرعان ما كان يرمي بكل شيء بعيداً بكل شغفٍ وحماسة، ويصبح مستعدّاً للجدِّ

في أكثر السعي غرابةً خلف أراضٍ جديدة. أما في وعيه السياسي، فقد ركض خلف إيديولوجيات أقل ما يقال فيها إنها تناقض بعضها بعضاً (إن لم تكن مُقصيةً تماماً)، لكنه بقي في الوقت ذاته (وعلى الرغم من كل تجسداته الفلسفية المتنوعة) حاجّاً روحانياً متعالياً فوق كل إيديولوجيا وعقيدة.

لقد اقترح بيتر بيان – أحد أكثر مترجمي كازانتزاكيس معرفة واطّلاعاً- أن نيتشه زوَّدَ المؤلّف اليوناني بـ"قالب إنساني" لبطلٍ للفردانية ساءلَ العقيدة التقليدية وفنَّد مقولاتها. ومع أن كازانتزاكيس لم يرفض "التعاليم الإيجابية" التي طرحها نيتشه، إلا أنّه كان أكثر انجذاباً للوجه "السلبي" في فلسفة نيتشه. وقد وجد الكاتب الكريتي نفسه مُجبَراً على رفض تعاليم نيتشه حول إرادة القوة (وخصوصاً بعد اكتشافه لبرغسون[3])، على أساس أن "جوهر حركة الحياة سيغدو منقوصاً في حال تجسيده".

يعسرُ تحديد المدى الذي استبدلت به إحيائية برغسون نيتشه. ويمكن رؤية النتيجة أيضاً على أنها تركيبٌ لبرغسون ونيتشه سوية. وفي عمله المقالي الفلسفي (بالإضافة إلى رواياته الروحية الكُبرى نوعاً ما)، كان كازانتزاكيس قد اعتاد التشديد على تعاليم التحويل شبه

3.هنري برغسون: فيلسوف فرنسي عاش بين عامَي 1859-1941م. يعتبر من أهم الفلاسفة الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين. قسّمَ بيرغسون العالم إلى حياةٍ (أو وعي) ومادة، ورفضَ التطوّر الداروينى، وقال إنّ في الحياة قوّةً حيوية خلاّقة تخلق الأشكال عندما تسعى الحياة لفرض نفسها على المادة. حاز على جائزة نوبل للأدب في عام 1927م. .(المترجم).

الصوفي (ميتوسيوسيس) للمادّة إلى الروح. ولا ريب أن الثقة العالية بالنفس الفاتنة التي تفوح بها ثقافة برغسون الباريسية قد راقت كثيراً لكازانتزاكيس، لكنها لم تُبطِل تصوّفه الشرقي ولا جدّيته الأورثوذوكسيّة. لقد أدهشت الحيوية البرغسونية كازانتزاكيس باعتبارها مَنفذاً لتوازنٍ هشٍّ كان يسعى خلفه في كل مكان. توازنٌ بين عقلانية التنوير الأوروبية الحديثة والتصوّف التأملي الكوني الرجعي لماضٍ أكثر عمقاً وأزليّة. لكنّ كازانتزاكيس (البعيد جداً عن الارتواء من النبع البرغسوني) تأثّر بعمق بذاك الشغف المشبوب الغريب على أناقة الفيلسوف الباريسي المثقّفة.

يظهر تأثير نيتشه أيضاً جليّاً في الهدف الأخلاقي، الذي تمكّن كازانتزاكيس من إحياء عمله بواسطته. فقد ذكر كازانتزاكيس:

"أنّ إعجابه بنيتشه كان احتفالاً بـ"إيقاع" مشروع نيتشه المبدِع، على الرغم من بعض تحفّظاته على تعاليم نيتشه الخَلاصية في الـ"الأوبرمِنش"."

ويبدو أن كازانتزاكيس رفضَ عقائد نيتشه الأساسية حول الراديكالية الأرستقراطية. وقد يكون الأمر أنّه كان لدى كازانتزاكيس ما يكفيه من التعاطف مع الإنسان العادي مقارنةً بحلم "جعل كل الأفراد كائناتٍ متفوّقة". إلا أنّه قبلَ في الوقت ذاته (ومن كل قلبه) نقد نيتشه للأخلاق التقليدية، وللدلالات الضيقة السطحية لكل من مصطلحَي "الخير" و"الشر"، ولمساهمة الأديان التقليدية في إفقار

الحياة وإعاقة القدر الإنساني بتجاوز الذات. ما تعلّمه كازانتزاكيس من نيتشه حقاً كان عدم إهدار منظوره العميق حول الروح على أديان مليئة بالنَقمة والعِقاب. وقد تمسَّكَ كازانتزاكيس بمفهوم "الروح" بقوّة، حتى في وجه التعاليم النيتشوية التي تعامل معها بجديةٍ هائلة. وأنا أقترح ها هنا أن كازانتزاكيس كان مُرتبكاً أمام الإبهام الواضح في تعاليم نيتشه حول التجاوز. وفي نسخته من التجاوز الإنساني، فضّلَ كازانتزاكيس النسخة التحويلية، وهي نسخة يبدو أنها تحتفظ بالثنوية التقليدية للمادة والروح، والتي عبَّرَ عنها المؤلف الكريتي في رسالته شبه الفلسفية "*Aesthetike*".

ويقول بيتر بيان – وهو أحد أكثر مفسِّري كازانتزاكيس اطلاعاً وتبصُّراً – حول سنوات نضج كازانتزاكيس أن تلك الفترة "تتوافق مع ما بدا مأساة موت الحضارة الأوروبية. فمع اعتقاده بإفلاس الليبرالية، واحتقاره العميق للقِيَم البورجوازية، بحث كازانتزاكيس عن مَوَدّةٍ صوفيَّةٍ متجذّرة في حيوية أسطورةٍ شاملة غير مبهرجة الثقافة، إذ هي وحدها مَن ستَحُلُّ مشكلته الشخصية وداء العالَم كله". ومع ارتحاله عبر الأفكار متجهاً نحو رفضٍ عميق للعقائدية، جعلته حساسيته الفطرية الشديدة المتأصلة بعيداً عن كل تفضيل لمؤلف أو قضية." وكما العديد من معاصريه، عاد مرة تلو الأُخرى إلى إشكالية ملء فراغه الخاص".

إلا أن التشديد على قلقٍ وجودي قد لا يكون مجرّد ذاتويّةٍ جديدةٍ وحسب، بل وحالة مضلِّلةً أيضاً. وقد يكون مضلِّلاً إلى حد الإيحاء بوجود حالة مرضية. كان كازانتزاكيس يسكن ما هو حتى حينه عالماً من الحقائق الموضوعية. وكان خواء الحقيقة ذاتها محكوماً بالاعتبار كحدث موضوعي: ما لم يكن حدث مغادرةٍ واقعيّ حتى، على الأقل بالمعنى الذي تكون فيه المراقبة والتفكير بظِلِّ ما التزاماً أنطولوجياً بالوجود الفعلي للظِلال ككيانات حقيقية. وهذه قضية تُفلت من ما بعد الحداثوية والمنظومات المعاصرة الشبيهة بها، الأمر الذي يؤدي مع مرور الوقت إلى رفع ذاتويتنا السولبسية[4] الجديدة الحالية إلى مصاف عقائدَ مهدِّدة للفكر.

لم يكن توق كازانتزاكيس متجهاً نحو سَردٍ يعيد كتابة ذاته، بل نحو سردٍ يلتمس الاتحاد مع المعنى الكوني، بعد وشومٍ عميقة نقشتها مغادرة المُثُل التقليدية ونزع أحشاء الآلة التنويرية. لربما ما يزيد الأمر هزليةً هو أن نيتشه نفسه كان موضوعياً أيضاً. وإنجيله الزارادشتي كان مناهضاً لفكرة الإنجيل. وكان إعلاناً لا أدريّاً في الوقت الفِعلي، ولم يكن سرداً متفلِّتاً أو سُلَّماً يتوجّب على المرء ركله بلا فائدة بعد تسلّقٍ عبثي.

---

4. السولبسية: فلسفة تقول بأن العقل وحده الموجود. وأنْ لا وجود لغير الذات. .(المترجم).

أحد الفروق الهامة التي تُغفَلُ بين كازانتزاكيس ونيتشه عندما نلتمس مَرضية الفراغ هو: يبقى كازانتزاكيس من الناحية السايكولوجية دوماً مؤلِّفاً أصيل التصوُّف، وروحه ترتاح في التصوف الأورثوذوكسي الشرقي. فهي أقرب إلى دوستويفسكي منها إلى منكري الأديان الضُحَلاء. ونيتشه ذاته لم يتمكن من استيعاب كلّيّة العبقري الروسي. فقد لاحظ نباهته السايكولوجية، لكنه تجاهل استعارته حول القوى الحيوية الكونية الصوفية (وبالتالي: الدينية) بمرَح. مع أنها كانت هوس دوستويفسكي الأبدي. وهذه اللحظة هي المَفصل الذي يجب على المرء أن يُقابل فيه أوديسة كازانتزاكيس بزارادشت نيتشه. فكلاهما مجدِّفان ويقلِبان صورتَي حياة المسيح وتعاليمه. ولكن: أين الاختلاف بينهما في ذلك؟

لقد لفتت دراسة حديثة الانتباه إلى فهمٍ أفلاطونيٍ (وقد يكون أفلوطينياً جديداً) للهوة التي نجدها حتى في أشد عبارات كازانتزاكيس "العدمية" إثارةً وتحريضاً. إن فهم كازانتزاكيس لهذه الهوة يعيد تأكيد مركزيّة الإنسان لديه، مركزية هي إعادة تراصفٍ للحرية البشرية مع نهاية مفتوحة يكون فيها "اللاشيء" حالةً نقية من الكون الصامت إلى حد الرعب. حالة لا يمكن للإنسانية أن ترتقي إلى الأفق الأفلاطوني إلا بعد تجاوزها، و(تجاوزها حصراً). تبدو وجهة النظر هذه متناغمةً تماماً مع الأصولية المتعالية إلى حد المفارقة مع الاعتراف بالجانب

الآخر من كازانتزاكيس: حسُّه المتذمِّر من فشل الميتافيزياء بتقديم أية إجابة شافية. وبالتالي من الصحيح القول إن النفي لدى كازانتزاكيس هو تمهيدي دوماً، ومجرد خطوات على درب مزيدٍ من الإثبات الشامل. الأمر الذي ينطبق لربما على نيتشه أيضاً. فقد كان هو الآخر ينتقل من النقدية إلى التعاليم الوضعية الإيجابية بسهولة وحماسةٍ ملحوظة – وشكلٍ محيِّرٍ غالباً-.

يبدو لي أن أحد الفوارق العميقة بين كازانتزاكيس ونيتشه تتمثل في: على الرغم من خلفيته اللغوية التقليدية المثيرة للاعتزاز، إلا أن نيتشه يُقَلِّص الإنجاز اليوناني إلى فردانية ذاتوية غير يونانية. (وهو ما كان موضة أورثها للثقافة الألمانية والتعليق الثقافي النجاح الساحق لهيغل ومقلّدوه). بينما يُحافظ كازانتزاكيس على رؤية للكون تعتبره مُعطىً موضوعياً. وضمن هذا الكون الموضوعي يجب وضعه مع عباراته وثقته الحزينة بالصمت والهاوية.

لقد عزا كازانتزاكيس أهميّةً شبه صوفية تقريباً لحقيقة أنه وُلِدَ في منطقةٍ تحيا تحولات كتلك التي فيها. وكان نيتشه من أهم المفكرين والكتاب الذين خاطبوا أعمق يقينيات كازانتزاكيس في هذه القضية. وهو تأثير ملحوظ بشكل خاص في تشخيص نيتشه لداء العدمية المعاصر (وصورته المرآتية الخلفية: أُخرويات مريحة، عسكرتارية..) من حيث هو عرَض وسبب في الوقت ذاته لاكتشاف رهيب هو غياب

أي هوية ميتافيزيائية صلبة في النسيج الكوني، للقيَم. نيتشه نفسه – لاعباً وفق قواعد لعبة الوحي الكشفية هذه- شيّدَ بناءً ألفياً لسرده: مستقبلاً إنسانياً مفتوح النهاية، يدشّنه "موت الله"، ويجد ذروته في مستقبلٍ يشهد نوع الإنسان الخارق. تتضمن هاتان الأُطروحتان – الماضي باعتباره حالة تتأوّج في العدمية، وداروينية متسامية تؤدي إلى مستقبل إنسان خارق- شهادة نيتشه حول المساحة المتضائلة للروح الأوروبية، وتمارسان تأثيراً معتبَراً على الحركة الثقافية المبكرة لدى كازانتزاكيس.

لكن انجذاب كازانتزاكيس إلى نيتشه كان بسبب الجوهر العميق المضاد إبداعياً لدى المفكر الألماني بشكل أساسي، واستعداده للثبات في مكانه بدلاً من الهرب من الهاويات التي أطل غلبها كانطِ عند اكتشافه لتناقضية العقل البشري. فعند مواجهته للأسئلة الصعبة الأكثر حيوية، والتمعّن في الأسس والذُرا، يمُكن للعقل البشري إنتاج أطروحات قوية منيعة لكل من طرَفَي المسألة.

الأمر الذي لم يكن ليشغل بال كانط، لكن نيتشه مضى فيه بوضوح إلى نهاياته باعتباره اعترافاً انتحارياً أخيراً من قبل العقل بهلامية الأرض التي يستند إليها، وعجزه وسلسلة الأوهام المنتجة للعقائد فيه. ولا بدَّ أن كازانتزاكيس وجدَ في النعي النيتشوي للعقلانية

الأوروبية مفتاحاً رائعاً لينابيع إلهام أعمق فوق عقلانية. الصوفية الشرقية تلتقي العقلانية الأوروبية على فراش موت الأخيرة.

كذلك، وفي حالة نبوءة نيتشه البعد عدَمية، سرعان ما تنقَذ القواعد (لدى تلميذ نيتشه الصبور الذكي) التي تنضوي ضمنها رؤية نيتشه وتساؤلاته وأطروحاته: هل كان شوبنهاورياً [5] معتكفاً على تخليص الأنطولوجيا الشوبنهاورية شديدة العدمية من كل أوهامها الذاتية المكبوتة ونكوصها العقلاني؟ هل كان نيتشه نصيراً متأخراً للمفكّرين قبل السقراطيين، ويعيد بكل بساطة فتح باب نموذج منسي من التساؤل والتحقيق؟ هل كان ناقداً حاداً ومتبصراً للقيود المعرفية والدوافع المسكوت عنها في أبستمولوجيا كانط؟ هل كان مَقاليّاً – في قالب فرنسي أو حتى إيمرسوني[6] نقلَ مونتاين[7] الريبيُّ إلى الألم المحتوم لعصرٍ يبتعد عن المسيحية بشكل علني؟ وهل كان داروينياً ميتافيزيائياً انعطف مبتعداً بشكلٍ خطير عن نقده المبكِّر للعقلانية السقراطية نحو لاعقلانية "إرادة القوة" الحيوية؟

---

5. شوبنهاور: فيلسوف ألماني عاش بين عامي 1788-1860. قال إنّ الإرادة هي الواقع المطلَق، وبأنّه لا يمكن بلوغ السعادة إلا بالتخلي عن الإرادة. (المترجم).
6. أيمرسون: فيلسوف وشاعر أمريكي عاش بين عامي 1803-1882. طوّر مفهوم الفلسفة المتعالية (الترانسندنتالية). .(المترجم).
7.مونتاين: كاتب فرنسي، يُعتَبَر مؤسس فن المقالة الحديث. عاش بين عامَي 1533 و1592م. كتب عن الشخصيات والأفكار البارزة في أيامه.(المترجم).

في النهاية، لن تثبت أيٌّ من القواعد السابقة كفايتها لفتح أقفال فكر نيتشه. وإذا حاول تلميذٌ لكازانتزاكيس تصنيف فكر كازانتزاكيس، سيواجه هو أيضاً المشكلة ذاتها. كما أنّ جمع المقارَبات وتطبيق التوفيقية النقدية، أو محاولة المصالحة عبر تلطيف التناقضات أو التوزيع الانتقائي للتوكيدات، لن يُجدوا نفعاً في ذلك؛ إذ يبقى نيتشه مُتَفلِّتاً، وكذلك كازانتزاكيس.

ومما يثير الدهشة، أنَّ أية محاولة لفهم نيتشه ستأخذ مجراها الصحيح عند اقترابها من بعض التحقيقات البسيطة، مثل: على الرغم من احتمال وجود "لاهوتٍ سلبيٍّ" لدى نيتشه – كما اعتقدَ هايدغر[8] وأندرياس لاو سالومي[9] فإن حب نيتشه غير المشروط ملحوظٌ دائماً وأبداً. ويمكنني قول الشيء نفسه عن كازانتزاكيس، حيث بقي مخلِصاً حتى النهاية لمسعىً وعرٍ وشاقٍ وشديد السخط، لكنه مؤمناً في الوقت ذاته. ويمكننا هنا استذكار دوستويفسكي مجدداً، والهوس الأساسي في "المهووس": فقد ظهر الوحش الخلاصي

---

8. مارتن هايدغر: فيلسوف ألماني عاش بين عامي 1889-1976. تناول أنطولوجيا الوجود، وخصوصاً الوجود الإنساني في علاقته مع عالم الأشياء. مارست كتاباته حول الخوف باعتباره جزءاً أساسياً من الوعي البشري بسبب ميزة حرية الاختيار ووعي الموت عند الإنسان تأثيراً عظيماً على الفلاسفة الوجوديين (مثل سارتر).(المترجم).

9. أندرياس سالومي: محللة نفسية روسية، ورحالة شهيرة، وكاتبة مقالات، عاشت بين عامي 1861-1937، اشتهرت بصداقتها لبعض من أبرز كتاب ذاك العصر (نيتشه، فرويد...) كتبت العديد من الدراسات الأدبية والروايات، بالإضافة إلى النقد المسرحي والمقالات.

من الماء الفاتر، لكنه بقي محتفظاً بأولئك الحارّين والباردين على قدم المساواة، وضارياً شرِساً في مسائل الروح والإيمان.

درس كازانتزاكيس الفلسفة في باريس بين *19070-1909*، وحضر أثناءها محاضرات هنري برغسون الذي ترك في تلك الأيام انطباعاً عميقاً في التلاميذ في الكوليج دي فرانس. وهذه الفترة هي أيضاً التي كتب فيها كازانتزاكيس أطروحته حول "فلسفة الحق والدولة" لدى فريدريك نيتشه. وصل كازانتزاكيس إلى باريس في *1*/تشرين الأول/*1907*، مجهّزاً بدرجة علمية من مدرسة أثينا للقانون. كان في الرابعة والعشرين من عمره في ذلك الوقت، وكان الهدف من سكنه في باريس حضورَ صفوفٍ في مدرسة القانون في جامعة باريس. لكنّه لم ينتبه لنفسه إلا وهو منجرِفٌ بعمق إلى دراسة الفلسفة، وهنا تعرَّف على محاضرات برغسون لأول مرة.

لكن إحساسه بالذنب تجاه والده التاجر المجتهد، الذي كان عليه أن يدفع الفواتير (والتي لم يخفف من عبئها سوى احترام الابن لوالده الملهم العظيم وتبجيله له بلا حد ولا نهاية)، والذي شكل إلهام شخصية "الكابتن ميكائيلِس" لدى كازانتزاكيس، لم يتمكن من منافسة الفِكر والفلسفة والمثُل والتساؤل بلا حدود الذي استحكمَ عقل الشاب الشغوف. والمؤكَّد هو أنّه عندما يتعلّق الأمر بتعليم ابنه وتطوّره، كان الكابتن ميكائيلس بذاته مستعداً للإذعان ودائماً. وكما

هي حال معظم اليونانيين عبر العصور، كان والد كازانتزاكيس يحمل في قلبه احتراماً هائلاً وعميقاً للتعليم (على الرغم من كل النزعة العملية التي يعيش بها).

أنهى كازانتزاكيس المسودة الأولى لأطروحته في باريس. وقد نوى تقديمها إلى كليّة الفلسفة والقانون في جامعة أثينا، آملاً أن يضمن لنفسه بذلك وظيفةَ مُحاضِر. إلا أنّ هذه الوظيفة بقيت في فضاءات أحلامه، ولم ينلها أبداً. والمُرَجَّح أنّ أطروحة الشاب العبقري أُلقيت في سلة المهملات حالَ تلقّيها؛ الحادثة التاريخية المخزية التي تُضاف إلى السِجل الفظيع للجامعات اليونانية الحديثة المتوَحِّدة الراكعة أمام المحسوبية.

وضعَ كازانتزاكيس اللمسات الأخيرة على أُطروحته حال عودته إلى باريس في كانون الثاني وشباط عام *1909*م. وقد طبعَ كازانتزاكيس أطروحته في ثلاثٍ وتسعينَ صفحة حالما وصل مدينته "إراكليون". هذا النص هو الذي أتشرّف بتقديمه أنا وترجمته في هذا الكتاب.

أوديسيوس ماكريديس

الفصل الأوّل

1- تمهيد

قلّما أثار فيلسوفٌ ما كل ذاك الإعجاب واستدعى كل تلك الإهانات والتحقير كما فعل نيتشه. ففي أحد طرفَي النقيض نجد أنصاره يرفعوه إلى أعلى مصافات المفكّرين، ويهلِّلون لتعاليمه باعتبارها الخلاص الحق الذي أُنزِلَ لتطهير فضائنا الثقافي الحالي من كل كذبٍ وهرطقةٍ وتفاهة، ولتوجيه الجِنس البشري نحوَ هدفٍ يستحق السعي بذاته حقاً. وفي الجهة الأُخرى هناك مَن يُلقون عليه بكل أشكال الإهانة والتسخيف، منكرين صفة الفلسفة عنه باعتباره متهكِّماً سفسطائياً وغير عقلاني، لا يكلّ عن حَبك التفاهات والتناقضات بأسلوبٍ غنائيّ برّاق يخدع ويضلل كل من يستمع إليه. ويغدو إطلاق حُكمٍ حيادي على نيتشه أصعب أكثر فأكثر بسبب قلة الحياء والطيش الواضحَين لدى بعض النيتشويين الذين – كما يحدث دائماً- أساؤوا فهم المعنى الحقيقي لتعاليم المعلِّم. وقد كان أولئك الأتباع من شتى المَشارِب: من الفوضويين الديموقراطيين إلى الفوضويين الأشد استبداديّةً. وتبيّنَ سخفهم غالباً في كل الأحوال. ومع

عدم تضييعهم أية فرصة لازدراء القانون، أو تخيُّل أنفسهم ك "لا أدريين"، ثَبُتَ أنهم مجرَّدَ نرجسيين، وديكتاتوريين مستقبليين.

ترجعُ أسباب كل هذا التشوُّش وسوء الفهم – من جهة - إلى دراستهم الناقصة والمتسرِّعة لأعمالٍ معينة من أعمال نيتشه. ومن جهة أُخرى إلى الحذف المتكرِّر – حتى من الدراسات الكاملة- لبحثٍ في عنصرين حاسمَين (بدونهما يستحيل أي فهمٍ عميق لتعاليم نيتشه): الزمن الذي عاش فيه، وشخصيّة نيتشه وحياته.

مهما بلغت استثنائية الفلاسفة والشعراء والفنانين (فما بالنا بمستشرفي المستقبَل النادرين!) سيبقون دوماً نتاج أزمنتهم وتاريخهم. والعبقري الاستثنائي سيتشرَّب – في وعبر أعماله- ويهضم ويعيد تشكيل كل ملامح روح زمنه التي تبقى بدونه مضطربةً وضائعة الهدف وغير منتهية. وبذلك تغدو معرفة زمن المفكّر ومُثُلِ ذاك الزمان ومحركاته الكامنة حكماً لازماً لأية محاولة لفهمه ودراسته. هذه هي الطريقة الوحيدة لتقييم صادقٍ لجدارة فيلسوف، وفهم طريقة تعبيره عن اللحظة التاريخية في زمنه بعمقٍ وشمولية، وقياس مدى إسهامه الفردي في ذلك.

لكن ذلك كله لن يكفي لوحده. فبعد تفحُّصنا لأزمنته يجب أن نبحثَ في شخصيّة وحياة الفرد "المركَّب"، فيلسوفاً كان أم فناناً. فإذا كان صحيحاً أن الفن هو "تجسيدٌ ذاتيٌّ لخصوصية ما"، فإن نيتشه

اعتقد الأمر نفسه بخصوص الفلسفة. فوفقاً لنيتشه ليست الفلسفة منظومةً موضوعية مجرّدة تقع خارج الفيلسوف المفكّر، بل هي انعكاسٌ حَيٌّ لذاتية الفيلسوف، وتوسيعٌ ومَنهَجةٌ لصفاته وميوله. بكلمةٍ واحدة: هي تجسيدٌ لذاتيته في الموضوعي:

."*The objectification of his Subjectivity*"

لهذا السبب يمكننا القول إنّ الشيء الوحيد الذي يمكن للفيلسوف ويجب أن يقوله هو: ما هي الطريقة التي توصَّل بواسطتها إلى اكتشاف صفاته وقواه الكامنة. وما هي الطريقة التي اكتسب بواسطتها – بالتالي- سكينة الروح وتناغمها في هذه الحياة. بهذا سيكون مفيداً للتلاميذ بحيث يمكنهم هم بدورهم – عبر تكييف طرقهم الخاصة لتصبح أكثر تناغماً مع خصوصياتهم الذاتية- بلوغ الهدف ذاته.

في الواقع إن تعاليم نيتشه ليست سوى تأريخاً عاصفاً لروحه، التي اتجهت عبر عواصف لا حصر لها شيئاً فشيئاً نحو مزيدٍ من النور والسكينة. أي إنه يستحيل فهم تعاليمه بدون تفحُّصٍ تمهيدي ليس لأزمنته وحسب، بل ولشخصيته المبدِعة الخلاقة أيضاً.

وبالتالي ومنذ أول خطوةٍ وقبل أي تقدُمٍ نحو قلب دراستنا: سنرى بوضوح مدى الحاجة لتمعُّنٍ تمهيدي في مسألتين:

أزمنة نيتشه- أزمنتنا *2*. شخصيّة نيتشه وحياته.

أ- الأزمنة:

لم يحدث أبداً أنْ أتت أزمنةٌ كمثل أزمنتنا هذه: خصبةٌ بلا نهاية من حيث الخَلق والإبداع والانتكاس والسعي المحموم خلف مثالٍ ثابتٍ يمكنه إرضاء الحاجات المادية والروحية لإنسانيّةٍ تموج فِكراً وصراعاً.

وما كان معبود الأمس، ترنّح اليوم وسقط. لينتصب على أساسه مثال جديد سرعان ما يرتعش هو الآخر ويسقط متناثراً. وهكذا، وبعد سقوط نابليون العظيم، مستَنزَفاً نتيجة أشد الحروب كارثيةً وامتداداً، ومصدوماً بأغرب انقلاب لحظٍّ مجنون، احتشدت الأمّة كلها تحت جناح الدين المُريح، متلَمِّسةً سلامها والطمأنينة. لكنّ هذا الرجوع إلى الدين كان مسألةً وجدانيةً ولغوية، وكان نتاج الوهن والإرهاق غير المحدود. ومع منتصف القرن التاسع عشر برز معبودٌ آخر في مشهَد الوعي الإنساني، حاملاً بين ذراعيه سلَّةً متخمةً من الوعود، ومدَّعياً الحلول لكل المشكلات، ومُبَشِّراً بإرضاءٍ لا انحياز فيه لكل حاجة في هذه الحياة: العِلم. فقد حيّاه كل عقلٍ استثنائي بحماس عظيم باعتباره دين الإنسانية الجديد قطعاً. لكن - وكما في كل مرة- لم يُتَح لهذا الحماس أن يعيش طويلاً.

وعبثاً حاول الفلاسفة والطوباويون نَصبَ حُكمٍ دينيٍّ واقتصادي وسياسيٍّ جديد، استناداً إلى الطبيعة كما يكشف عنها العلم. بل وكلّما رفع العِلم الحجاب المقدَّس عن إيزيس[10] أكثر، أصبحت قِيَم الحب

10.إيزيس: آلهة رئيسة في الديانة المصرية القديمة، انتشرت عبادتها في العالم اليوناني الروماني.(المترجم).

والأُخوّة – التي لطالما سعى البشر خلفها، وحلموا بها- أكثر تنافراً مع المثل التي تقترحها الطبيعة. وهكذا أخذت الهوة الفاصلة بين الأخلاق والفيزيولوجيا تتسع وتصبح مرعبةً أكثر فأكثر. لقد رُسِمَت الطبيعة على أنها شيء غير أخلاقي ومتوحّش (وفقاً لمعايير الإدراك البشري)، زوجة أب قاسية باردة، وقوة عمياء همجية تدمِّر لتخلق وتخلق لتدمّر كل شيء من جديد.

لقد وصَلنا إلى زمن يبدو فيه كل ما كانت تعتقده البشريّة نبيلاً وأخلاقياً "منتهكاً لقوانين الطبيعة".

ويُطِلُّ علينا برأسه سؤالٌ محيّرٌ ومثيرٌ لكل أشكال القلق: هل الإنسان (ذاك الكائن الطبيعي والصغير جداً) ملزمٌ أخلاقياً بالخضوع لقوانين بقية الطبيعة وأتباعها؟ أم أنّه قادرٌ على (ومُلزَمٌ بـ) جعل نفسه استثناءً، باعتبار ثبوت استحالة الدفاع عن الخلط بين القوانين الطبيعية والأخلاقية ومزجها (بعد كل ما بذل الفلاسفة من محاوَلات في سبيل ذلك)؟

لذلك يظهر لدينا، انطلاقاً من هذا المصدر المزدوج للقوانين، التياران الرئيسان من تيارات الفكر الحديث، وهما تياران شديدا الحماس، تتقاطع أهدافهما بين كل فينةٍ وأُخرى. فلم يعد العلم قادراً على التدخُّل كمُسعِفٍ وفاعل خير حيادي. وقد ذهبت محاولات الناس للحصول على جواب منه حول "ما هو– لِمَ" الأشياء سُدىً، الأمر الذي دفعهم إلى تجريب الخيار البديل: يمكن للعلم الإجابة عن

"كيفَ" ولكنه عاجز عن الإجابة عن "لماذا" و"ما الهدف". ثمَّ أتت خيبة الجميع من نظرية داروين الشهيرة والتي ظهرت كإجابة لسؤال البشرية المُعَذِّب حول "المجهول". فقد فسّرت هذه النظرية الداروينية التكيُّف، والمناوَرات، والتوليفات العجيبة التي ابتكرتها الطبيعة في محاولة لتخطي العوائق التي قفزت في طريقها. لكنها مع كل ذلك بقيت عاجزة عن تفسير سبب عملية التطور وهدفها. فحالة الطريق الوعرة وتخطي العوائق هو حقيقة لا يمكنها تبيين بداية الطريق أو نهايته، كما لا يستطيع التكيُّف تبيين التطور بأي شكلٍ من الأشكال.

لقد أدّى هذا النقد الصلب الراسخ إلى البدء بدَكِّ العِلم، وإخضاعه للتحليل والانقلاب عليه شيئاً فشيئاً.

الأمر الذي أدّى بدوره إلى إنكار علماء وفلاسفة كبار (من مثل: هنري بيرغسون وبوليوس بوانكاريه وإدوارد لي روي في فرنسا، وتشارلز بيرس وويليام جيمس في أمريكا، والبروفيسور فرديناند شيلر في إنكلترا) قدرة العِلم على تقديم أجوبةٍ لأي أسئلةٍ جدية، إلا الثانوية منها التي تتعلق بالفائدة العملية والتطور المادي. وعند محاولتهم تشخيص عجزه عن الإيفاء بالوعود التي ادّعاها هو، خَلُص كل أولئك الكبار إلى إفلاس العِلم.

كل ما سبق أدى إلى أن تظهر أعتى حملة فوضوية ذهنية (أو روحية) غير مسبوقة حتى حينها على "التاريخ". فأفكار الماضي ومنظوماته وقوانينه وأخلاقه ما تزال حيّةً، في حين أنّ أسسها التي

ترتكز إليها أُسقِطَت ودُكَّت من قِبل التحليل والنقد الحديث. وهذا التناقض الرهيب السائد يغدو في أيامنا هذه غير قابل للاحتمال أبداً: إذ على الإنسان حالياً الخضوع للقوانين، التي لم يعد لديه أدنى حدٍّ من الثقة فيها. وعلينا اتباع قوانينٍ - من أجل العَيش- نعلمُ سلفاً أن المفاهيم التي صيغت استناداً إليها هي "خاطئة"، مفاهيم لم يتبقَّ منها شيء بعد أن أسقطها النقد والتحليل.

مع كلّ ذلك، لم تنجح الإنسانية بعد في اكتشاف عقائد منبعها المفاهيم الجديدة عن العالَم، والتي يمكن للناس أن يبنوا عليها مُثُلاً جديدة حول "مفهوم الدِّين المُطلَق" و"مفهوم الأخلاق المُطلَقة" وحول القوانين والأخلاق اليومية. وبالتالي ها نحن ذا في البرزخ، في حالةٍ انتقالية. ومع تدمير المَعبد في ثلاثة أيام، ما يزال العلم حتى لحظتنا هذه عاجزاً عن نَصبِ آخر في مكانه.

تُشبه الأعراض المرضية لهذه الحالة إلى حدٍّ مدهشٍ تلك التي كانت في أيام السفسطائيين[11]: أيّام انحدار العالَم اليوناني التقليدي. وكما في تلك الأيام، كذلك في أيامنا هذه، ما تزال الروح البشرية – التي رفضت وحطمت أصنام عبادتها المتعصبة السابقة-

---

11. السفسطائيين: فلاسفة يونانيون عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد، اشتهروا بالجدل المطوّل حول أي موضوع في الحياة. وقد أصبحت الكلمة تطلق لاحقاً على المتحذلقين بكل مجال وبفزلكةٍ كلاميةٍ وجدلية بلا نهاية. (المترجم).

تعيش في قلقٍ منتظرةً مرجعيّةً أخلاقيةً تنهي ترددها وفوضويتها. والبارحة كذلك مثل اليوم في وجود الرافضين والأبيقورية[12] والتشاؤميّة[13] والكلبية[14] واليأس التام والغياب الكلي للانضباط الداخلي، وإنكار كل نظامٍ اجتماعي. وقد أخذ شعورٌ عميق بعدم الراحة ينمو من الأسفل، مثل إنذارٍ مبكّرٍ بزلزالٍ وشيك، يهدد بقلب مجتمعاتنا الحالية والأنظمة السياسية التي تمت تعريتها وأُثبتَ انحلالها وضرورة تجديدها.

لكنّ ما يجعل أيامنا هذه أشد رعباً حتى؛ هو أن حالة الفوضوية وعدم الراحة المخيفة التي نحياها هذه ليست محصورة بالطبقة العليا وحدها وحسب، بل اختراق هذه الحالة – مع تفاقم فوضويتها وخطورتها- لكل شرائح المجتمع وطبقاته. وهذا كله بسبب نظام التعليم الإلزامي والمحاضَرات العامّة والكتب وإثارة يوتوبيات خطيرة

12.الأبيقورية: مدرسة فلسفية يونانية قديمة، أسسها في أثينا الفيلسوف "أبيقور". رفضَت الحتمية وشجعت الناس على السعي خلف أقصى حد من اللذة، ولكن ليس بلا تمييز: فقد رأت أن اللذة العقلية هي أعلى الملذات، وأسمى من الجسدية، وأن اللذة الأسمى هي لذة التحرر من القلق والألم الذهني (وخصوصاً ذاك الناتج عن الخوف من الموت والآلهة). (المترجم).

13.التشاؤمية: الاعتقاد بأن هذا العالم لا يمكن أن يكون أسوأ مما هو عليه، وأن للشر اليد العليا على الخير. والحياة أسىً بأسىً عبثي.

14. الكلبية: مذهب فلسفي أسسه الفيلسوف اليوناني "أنتيستينس" (الذي كان تلميذاً لسقراط) وتلميذه "ديوجينس"، قال إن الهدف من الحياة هو العيش بشكل فاضل، وتناغم مع الطبيعة. وإن السعادة الحقيقية للبشر (ككائنات مفكرة) تكتسب عبر التدريب الصارم، والعيش وفق الفطرة الطبيعية، والتخلص من رغبات الثروة والسلطة والشهرة، أي: عبر الحياة البسيطة الزاهدة في كل ملكية ورغبة حسية.

وعقائدية شديدة الفساد، تجمع تعاليمها العمال والفقراء المسحوقين وضحايا الظلم سويةً، وتوحّدهم في نقابات وجمعيات وأحزاب سياسية، ومخيّمات مناهضة للإيديولوجيا الاقتصادية. وقد غدت الحاجة والرغبة بالنهوض ملحّةً وعاجلةً لديهم. أمّا القدرة على تنفيذ رغبتهم وتلبية حاجاتهم في التقدم والارتقاء، فهي اليوم في أيدي أماكن الاقتراع. قدرة يسعون خلفها وهي لا رحمة في قلبها ولا أمان. ومع غياب سُلطَةٍ عُليا اليوم تقف في وجه الحشود وترهبها (مطلَقٍ، كلي الوجود): تهتاج الجماهير وتنتفض الشرائح الاجتماعية الدنيا والأكبر عبر المجتمع كله، متعاظمةً بوحشيةٍ أكبر مدفوعةٌ بأحقادٍ قديمة، ومسلَّحةً بنظرياتٍ حديثة، وخالعةً عنها كلَّ خوفٍ وكل وعدٍ مُواسٍ بالآخرة. لم يَعُد للثواب أو العقاب الأُخرَوي أي سُلطةٍ على غرائز اليوم.

هكذا تشكَّل عصرٌ جديد، عصرٌ تحرَّك بقوةٍ ضدَّ كلّ قيدٍ روحانيّ. وبينما يمكن للمرء أن يلاحظ بسهولةٍ ميلاً نحو التركيز على كل ما هو مادي من جهة، سيلاحظ في الوقت ذاته تفككاً روحانياً كارثياً وعلى أوسع المستويات. وهو ظاهرة لم يسبق لأي مجتمع أن شهدها قبلاً. فحتى هذه اللحظة كانت هنالك دوماً مرجعيّةٌ عليا – دينيةً كانت أم سياسية- تجد طريقها لفرض أسلوب تفكيرها ودينها وأخلاقياتها على

كل من هم تحت سيطرتها. بينما ترك للفرد حرية التصرّف في كل الأوجه الأُخرى تبعاً لعمله ولطاقته المنتِجة. أمّا اليوم فتطالب الدولة بحق تنظيم كل شيء، والسيطرة على التجارة والنشاط الاقتصادي والإنتاج المادي بكل أشكاله - إن أمكن-، سامحة فيما تبقى بحرية الفرد في التفكير والدِّين. كان التعبير الروحي والثقافي في الأزمنة القديمة مقيَّداً، في حين سُمِحَ بحرية التعبير المادي. أما اليوم فقد غدا التعبير المادي مقيّداً وأُطلِقَ سراح التعبير الفكري.

لكن وبرغم براءتها الظاهرة، تستمر حرية الفكر التامة هذه بكونها أداة تدميرٍ مهولة، ولا فائدة منها في إعادة البناء. كان القرن الثامن عشر – قرن النَفي والتدمير- أكثر وقتٍ ظهرت فيه فائدة الحرية الفكرية، لكنه كشَّفَ عن وجهه الخطر والكارثي في القرنين التاسع عشر والعشرين، عندما أصبحت الحاجة لإعادة البناء شديدة الإلحاح والأهمية.

كان محتوماً في حقبةٍ كهذه – حقبة تقلُّبٍ شديد، لكنها في الوقت ذاته حقبة محاولاتٍ هائلة للبناء- ولادة العديد من المفكّرين والمدمّرين، من حالمي اليَقَظة والمبدعين. ففي إنكلترا أثبتَ روبرت أوين[15] جرأةً لا تُحد بمشروعه "نيو هارموني" الذي أسسه في أمريكا.

15. روبرت أوين: صناعي ومُصلِح اشتراكي عاش بين عامي 1771-1858. حاول تأسيس مجتمع اشتراكي يستند إلى علاقة تعاونية بين العمال وأصحاب رأس المال. (المترجم).

حيث أثبتَ أنّه إخفاق عظيم. وفي فرنسا تنبأ سان سيمون[16] بأخوّةٍ عالمية مبنية على العمل والقدرة البشرية. أما أوغست كونت[17] فقد ركزّ "دينه الإنساني" على العِلم والمحبة. بينما سمح شارل فورييه[18] بتشارك رأس المال والعَمَل والفكر في الأرباح. وفي ألمانيا جَدَّ ديفيد شتراوس[19] ولودفيغ فيورباخ[20] وماكس شتاينر[21] في مجال الدراسات الدينية والأخلاقية، بينما أسَّس فرديناند لاسال[22] وكارل ماركس[23]

16. سان سيمون: سياسي ومنَظِّر اقتصادي ورجل أعمال فرنسي، عاش بين عامي 1760-1825.ومارس تأثيراً كبيراً على السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وفلسفة العلم في عصره. يعتبر من آباء الاشتراكية الخيالية أو الطوباوية كما تسمى. (المترجم).

17. أوغست كونت: فيلسوف فرنسي عاش بين عامي 1798-1857. أحد مؤسسي علم الاجتماع. حاولت فلسفة كونت الوضعية تحديد قوانين التطور الاجتماعي وتأسيس علم اجتماعي أصيل يمكن استخدامه من أجل إعادة البناء الاجتماعي. (المترجم).

18. شارل فورييه: فيلسوف ومفكر اشتراكي فرنسي بارز، وأحد آباء الاشتراكية الخيالية عاش بين عامي 1772-1837. (المترجم).

19. ديفيد شتراوس: كاتب ولاهوتي بروتستانتي ألماني، صدم أوروبا المسيحية بتصويره ليسوع التاريخي، ونفي طبيعته الإلهية. ارتبط عمله بمدرسة توبنغن التي أحدثت ثورة في دراسة العهد الجديد والمسيحية المبكرة والأديان. (المترجم).

20. لودفيغ فيورباخ: فيلسوف وأنثروبولوجي ألماني عاش بين عامي 1804-1872. اشتُهر بكتابه "نقد المسيحية" والذي قام فيه بنقد للمسيحية، وكان مؤثراً للغاية في أجيال من المفكرين اللاحقين، بما فيهم كارل ماركس وفريدريك إنجلز وريتشارد فاغنر ونيتشه. (المترجم).

21. ماكس شتاينر: فيلسوف ألماني عاش بين عامي 1806-1856. يعتبر من آباء الفلسفة العدمية والوجودية وما بعد الحداثة واللاسلطوية. أشهر عمل له كان "الأنا العليا وذاتها". (المترجم).

22. فرديناند لاسال: قاضي وفيلسوف واشتراكي ألماني. عاش بين عامي 1825-1864.

23. كارل ماركس: فيلسوف واقتصادي واشتراكي ألماني. عاش بين عامي 1818-1883. من مؤسسي علم الاجتماع. من أهم كتبه: البيان الشيوعي، ورأس المال.

عقيدة الاشتراكية، مُدينَين رأس المال باعتباره "مُلَطَّخاً بالدمِ والوحل"، ومتنبِّئين بانتصارٍ ضروريٍ وحتميٍّ تاريخياً للطبقة الرابعة، والسقوط الذي لا مفرَّ منه للطبقتين البورجوازية والرأسمالية. وفي حين كانت الاشتراكية مطروحةً قبل ماركس على أسسٍ وجدانية مثل المحبة الإنسانية ومفاهيم العدل والمساواة المبهمة فلسفياً، فقد استلَّت الآن أسلحتها من ترسانة العِلم، مؤسِّسةً الانتصار النهائي للطبقة العاملة كنتيجةٍ بديهيةٍ وشرعيّة متوافقة مع المنطق الطبيعي للتطور الاجتماعي.

أمّا لاسال فقد كان قديس العقيدة الحديثة المندفِع، وقد بشَّرَ الحشود بالإنجيل الجديد بكل حيوية وفصاحة.

في حين وَجَبَ عَدُّ نيتشه بين المبدعين والمدمرين كليهما على السواء، باعتباره احتوى صفات من الطرفين.

ومختلفاً بعمق عن أولئك الفوضويين المتمردين كرمى للتمرد فحسب، وعن اللاأدريين المترددين قبل القيام بكل خطوة، ظهر نيتشه في نهاية القرن التاسع عشر: شخصاً هائل التراجيدية، يحتوي في داخله كل قلق عصرنا العاصف، وكل تناقضاته التراجيدية، العطش المعذِّب للحقيقة المفنّدة لكل أمل فينا، والسّخط والهرب الفوضوي لقرننا، وميله العشوائي نحو مُثُلٍ أكثر نبلاً وجِدَّة.

هو طبيعةٌ مزدوجة: سلبية وإيجابية. ويجب علينا بذل قصارى جهدنا قبل تمكننا من التسلل إلى فهمٍ تفصيلي لتجليات طبيعته.

إن نيتشه هو الناقد الأشدُّ دهاءً - من جهة -، ذاك الذي لا يتردد ولا للحظة قبل تعرية ونقضٍ حتى أشدّ التقاليد والأفكار قدسيّةً واحتراماً. هو المدَمِّرُ الذي تحرّكه أعتى الدوافع بساطةً وقسوةً وصلابة نحو تحريض النقمة والاستياء بين أشدِّ الأبطال إخلاصاً وتكريساً. من جهةٍ أُخرى، هو الشاعر العميق متدفِّق الحُبِّ لكل ما هو عذبٌ ونبيلٌ وجميل، ذو الفرح الديونيسي[24] المتصاعد من عقلٍ تحتله الفوضى والتشوُّش، ومن تكوينٍ يعاني عبثاً التماس الراحة والخلاص في الشواطئ المتوسّطية.

حالما ننتهي من تفحُّص أزمنة نيتشه، سيقدِّم لنا البحث في شخصيته وحياته – والعلاقة المتبادلة بينهما- المفتاح للُغز الذي فرضه عمل نيتشه حتى هذه الأيام.

ما هي أكثر الصفات استثنائيةً في نيتشه؟ وكيف تكثّفت هذي الصفات إلى حد تجليها في نوباتٍ يوشّيها الخطر في كل آن (وذلك بدافعٍ من ميول الشباب القديم العاتية فيه)؟ وكيف تلبس أفكاره وصفاته ثوباً متكاملاً (من السلبية والتشاؤمية)؟ وكيف لها أن تحوَّلت إلى حالة من الإيجابية والتفاؤلية، لتجتمع ببعضها وتشكّل مثله السياسية والاجتماعية والفلسفية الأخلاقية الواضحة المحَدَّدة المعالِم؟

سنقوم في الخلاصة الآتية بمراجَعةٍ لحياة نيتشه الداخلية والخارجية، نبحث فيها بالأطروحات السابقة، إلى الحد الذي يسمح لنا

---

24. ديونيسي: نسبةً إلى ديونيسوس إله الخمر عند اليونانيين القدماء.(المترجم).

بفهم منظومة نيتشه الفلسفية، مع تركيزٍ خاص على آراءه في "الحقّ والدولة".

ب- حياة فريدريك نيتشه وشخصيّته:

يتميّز نيتشه بصفتين استثنائيتين هما: إخلاص أصيل راسخٌ لا سبيل لزعزعته، و"أنا" متضخّمة لا سبيل لرؤية حدودها.

إخلاصه كان السبب في سعيه المحموم خلف الحقيقة، والتمعُّنَ في الأفكار ثم صهرها والنفاذ فيها وإلى جوهرها. هو مَن يستنبط النتائج، لكنّه لا يعرف الرضا أبداً معها؛ فالخوف مقيمٌ في روحه دوماً وأبداً من ألا تكون الحقيقة هي ما اكتشفه، وأن يكون هناك حجاباً آخر ما زال يجب عليه نزعه قبلها. هو الشكاك النَهِم الذي يبقى قلقاً في كل ما يخصّ الحقيقة حتى بعد تأسيسه أفكاره على أساسٍ من تحليلٍ دقيق، ومتسائلاً حول ما إذا كان الوجه الذي ألبسها إياه مجرّدَ قناع آخر هو ذاته.

إنّ هذه الصفة المهيمنة في نيتشه أرغمته مراراً وتكراراً على المضي قدماً وتجاوز ذاته. وقد عاش نتيجة لذلك في قلقٍ دائم، محاولاً "مَوضعَةَ" ذاتيته، والمضي نحو اعتبار تجاوز الذات هدفَ الإنسانيّة الأسمى. فالإنسانية – وفقاً لنيتشه- تسعى بلانهايةٍ ولا توقف لتجاوز ذاتها، خالقةً في ثنايا صيرورة ذلك نماذج أكثر كمالاً دوماً وأبداً.

من جهةٍ أُخرى، تشرح "أنا" نيتشه القوية وتعزز صفته المميزة الثانية: "الإخلاص". وهنا لا مساوَمة لديه أبداً، إذ ستجده جادّاً أبداً بكل شغفه المتجدد خلف كل جديدٍ وغير مسبوق. لذلك غالباً ما تجده يقع في التناقض والتهكّم، حتى عندما يفعل ذلك لخاطر الظهور متفرّداً ومتفوّقاً على سائر الآخرين بين جمهور العَرض الفلسفي.

ومن اجتماع الإخلاص والغرور تظهر نسوية نيتشه وحدّته الهستيرية نحو كل ما يعتقد بأنّه كذب أو غير دقيق إلى حد ما. كما يظهر ميله الشغوف الذي يدافع بواسطته عن معبود الإنسانية الجديدة: السوبرمان.

وبعد أن تآلفنا مع هذه الصفات الواضحة المميزة في نيتشه (الإخلاص، تضخم الأنا، الحساسية، الشغف) يمكننا أن نحاول بسهولة فهم التأثير العميق الذي مارسه.

فبحكم تربيته في أسرةٍ من القساوسة والأتقياء، حافظ نيتشه إلى الأبد – سويّةً مع كل بغضه للمسيحية- على أخلاقٍ هي مسيحية بالكامل. وكبروتستانتي أصلي، اعتقد بالتناغم التام بين العلم والمسيحية. وكان هذا هو السبب في إرضاء دراسته للدين لطبيعته الاستثنائية: الإخلاص والتكريس التعبدي للحقيقة. ولم تتغيّر تلك النظرة الودودة للدين إلا عند بلوغه العشرين من عمره، عندما بدأت

الشكوك تخامر نفسه حول ذاك التناغم. ويومها خطا أولى خطواته بعيداً عن الدين. لكنه لم يفعل هذا بالتخلي عن مفاهيمه السابقة، بل على العكس تماماً، فعله عبر مزيدٍ من الهوَس في تلك المفاهيم، إلى الحد الذي بدا واضحاً فيه أن إيمانه بالدين كان نتيجةً لمطابقته بين الدين والحقيقة. وحالما أخذ يرى افتراق الاثنين وانفصالهما، غدا محتماً – بحكم طبيعة شخصه- رفضه للدين واتباع الحقيقة.

إلا أن طبيعة نيتشه الشديدة الحساسية لم تسمح له على أية حال بافتراق لطيفٍ لا ألم فيه عن الدين. "كم من السهل على المرء التدمير!" زأر عالياً،" لكنه مُلزَمٌ بالبناء أيضاً". وأنا أظن أن التدمير يبدو أسهل مما هو عليه في الواقع. إننا مدموغون في أعمق أرواحنا بانطباعات الطفولة، ولمسات آبائنا ومعلّمينا الأبدية، إلى الحد الذي يستحيل معه التخلص من الأحكام المسبقة المتجذرة فينا – بقوة المنطق العقلي والإرادة- بسهولة. قوّة العادات المتأصّلة، الحاجة للمثال، تمزّق أزمنتنا، الانحلال المستمر لكافة الأشكال الاجتماعية في عالمنا، رفضنا الغاضب لتصديق تعرّض البشرية على امتداد ألفي سنة لخداعٍ كهذا، كل هذه الأحاسيس تتضارب في أرواحنا، مهددةً بتمزيق كل ما فيها إرَباً إرَبا.

لصراعٍ كهذا كان نيتشه يتعرّض، مكافحاً للحفاظ على ما لا يمكن الحفاظ عليه. ولم يتمكن من فصل نفسه عن الدين إلا عند

خضوعه لتأثيرات هائلة القوة آتية من خارجه. يومها أخذ بالارتقاء، كما قال هو نفسه: "الطريق المؤلم والموحش لباحثٍ لم يعد يبحث عن السعادة والسلام، بل عكفَ على السعي خلف الحقيقة وحسب، مهما بلغت التضحيات الواجبة عليه، وحتى لو كانت تلك الحقيقة كريهةً ومنفِّرة".

لقد واجه نيتشه عاملَين دفعاه لاتخاذ خطوته الأخيرة بعيداً عن الدّين؛ عاملان هزّا روحه بعنفٍ شديد: "آرثر شوبنهاور" و"ريتشارد فاغنر"[25]. إن إجراء مقارَنة مفصّلَةٍ بين نِظامَي نيتشه وشوبنهاور الفلسفيين هو أمرٌ خارج منظور هذه الدراسة. مع أنّ مقارنةً كتلك ستقنعنا بمدى التأثير الذي مارسه فيلسوف النيرفانا[26] (شوبنهاور) على روح نيتشه وحياته. لكن قد تكون بعض الكلمات القليلة في هذا الموضوع مفيدةً من أجل فهمٍ تام لفلسفة نيتشه.

مع ذاك المتشائم العظيم، قبِلَ نيتشه أن جوهر العالم هو "الإرادة" المتوزعة بالنوعية نفسها واختلاف الكمية عبر الكون كله. وهي ليست سوى أكثر الرغبات ألماً، التي تدفع الإنسان إلى صراعٍ أبدي، وهو مترعٌ باليأس بحكم صحبته لهاجس الهزيمة المخيف. "أن

---

25. ريتشارد فاغنر: مؤلف موسيقي ألماني عاش بين عامي 1813-1883.(المترجم).

26. النرفانا: مفهوم شرقي قديم يعني انطفاء الأنا الأنانية وكل تعلّق وتعطُّش لدى الإنسان. وهي مرحلة عليا على درب الارتقاء الروحي يتم بلوغها عبر التأمّل والتدريب الروحي العميق على تخليص النَّفس من تطرفاتها وميولها الدُّنيا. (المترجم).

تريد معاناةً أبديةً بلا أي سبب مقنع، ثم تتلاشى، هكذا إلى الأبد، إلى أن يأتي اليوم الذي تتشظّى فيه إلى فتات". هكذا رُؤيَ العالمُ كمكان لا مسوّغَ له، وليس هناك أي أمل بخلاصٍ مع عدمية هذه الإرادة ذاتها، التي هي وحدها المتخللة لكل تفصيلٍ في الحياة على كوكبنا.

لقد بدا واضحاً تأثير هذه التعاليم في روحٍ شديدة الحساسية والأرستقراطية كروح نيتشه، روحٌ هربت من ضجيج الشارع وتواصلات الحياة اليومية التافهة. ثمّ أتت المعرفة الشخصية بفاغنر وموسيقاه لتُبرزَ كل تلك التشاؤمية الحاضرة في نيتشه. لقد تذوَّق تلك الموسيقا بلذّةٍ مهولة وجرعات رهيبة، واحتضن - تحت تأثيرها- كل ما هو عصابي ومتحلل يهيمن على الروح الحديثة.

وبهذا، وحتى بلوغه الخامسة والعشرين من عمره، سقط نيتشه تحت تأثيرات تشاؤمية وعصابية. وبحكم بروز صفاته المميزة، ومع غياب كل توجيهٍ منهجي، أصبح نيتشه بطلاً فريداً، تواقاً من جهة للحياة والكفاح بعمق، ومنكمشاً في الوقت ذاته إلى دموعٍ هستيرية كلما أتى إلى أدنى تماسٍ مع الواقع. أخذ نيتشه يتراقص بكل القسوة والرقّة في الوقت ذاته، نوّاساً بين التحليقات الصوفية والعقل العلمي في الوقت نفسه. وفي كل لحظة فورانٍ عصبي، كانت نفسه تلهث خلف كشفٍ عن مِثالٍ يحتضن كل صفاته ودوافعه الفريدة، ويكثّفها بعمقٍ وتناغم.

وأخيراً أتى ذاك الكشف؛ وكان لنيتشه: اليونان. فمع تعيينه بروفيسوراً في جامعة بازِل في سويسرا (ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره) أتته فرصة دراسة التراجيديا اليونانية والفلاسفة اليونانيين بعناية. يُضافُ إلى ذلك تأثران ثانويان إضافيان: "فريدريك هولدرِلن"[27] و"رالف فالدو إيمرسون"[28]. حيث قام الأول بنقل الحماس الأدبي للحضارة اليونانية إلى نيتشه (وهي حضارة إنسانية وحرة إلى أبعد الحدود، بعكس الحضارة الألمانية الحديثة المهووسة بالتدقيق). بينما نقلَ إيمرسون إلى نيتشه سيرة الأبطال العظماء، الذين لطالما مدحهم "كارليل"[29] بكل مهابة وتبجيل (عبادة البطل)، والحماسة لحياة مليئة بالوفرة والحزم، وازدراء البضائع المادية والملذات البورجوازية الضيقة.

وسواء تلقى نيتشه الثقافة اليونانية الكلاسيكية بشكلٍ صحيحٍ أم خاطئ، فالنتيجة ستبقى ذاتها: إذ أصبحت اليونان المثال الذي يصبو نيتشه إليه، وأصبحت أوسع مفهومٍ يحتضن كلاً من التشاؤمية والحب المتهور للحياة في الوقت ذاته. وهي وحدها من يمكنه إرشاد

27. فريدريك هولدرِن: من أشهر الشعراء الألمان في تاريخ الأدب الألماني. عاش بين عامي 1770-1943.(المترجم).

28. رالف إيمرسون: فيلسوف وشاعر وألماني عاش بين عامي 1803-1882. طور مفهوم الفلسفة المتعالية (الترانسندنتالية). (المترجم).

29. كارليل: مؤرخ وفيلسوف اسكتلندي عاش بين عامي 1795-1881. كان متأثراً بالرومانسية الألمانية، وطرحت أعماله بقوة تآلف المسحة الدينية مع فقدان الإيمان بالمسيحية التقليدية. (المترجم).

البشرية نحو وجهتها الحقيقية. فالروح التي فاضت داخل التراجيديا اليونانية – كما يقول نيتشه- غدت هي بداية فلسفته ونهايتها. وقد أتاه إلهام أول عملٍ فلسفي له من التراجيديا اليونانية، ثمّ تمكن من تلك التراجيديا في النهاية- وبعد سلسلةٍ طويلة من كتاباته الهدّامة- من استخلاص مثاله في الحياة والإنسانية.

فالتراجيديا اليونانية وفقاً لنيتشه – وعبر الشفقة والخوف- يمكنها منح الإنسان حالة نشوة ديونيسية، وانعتاقٍ من قيود الحياة الفردية الضيقة، وقوة الكون الحي الأبدية الخلاقة. فمن ألحان رقصها - قرب الـ"تيميل"[30]- تستمد التراجيديا اليونانية قوتها، روحٌ حساسة إلى أقصى الحدود لأدنى درجات الأسى والألم. وبنظرها الثاقب، تقيّم الروح اليونانية الكوارث الوحشية في التاريخ العالمي وتكتشف عماء الطبيعة ووحشيتها. وهنا يظهر الفَن، ويُثبت أنّه الإله المخلِّص. فهو من ينقذ الروح اليونانية من التشاؤمية البوذية، ويحوِّل الكره الشديد لدى المتفرّج إلى مشهَدٍ مثاليّ وثنائي الأبعاد: تراجيديا وكوميديا.

ليس على المرء فقط أن يتحمّل الحياة – يقول نيتشه ملهَماً باكتشافه للعالم اليوناني- بل وأن يحبّها ويحتضنها بقوة وشغفٍ

30. التيميل: هو مَذبَحٌ يوناني قديم مكرّس لديونيسوس (أو: باخوس)، إله الخمر عند الإغريق. ويشغلُ عادةً مركز أوركسترا المسرح اليوناني، كان ملمَحاً دينياً مميزاً للعمل المسرحي. (المترجم).

أيضاً، رافضاً بازدراءٍ كلا من التشاؤميّة والرومانسية والمسيحية، وكل أشكال الانتحار وتسفيه الحياة: "أريدُ أن يعيشَ الإنسان فخوراً، حيوياً، ومتشوّقاً للحياة بكل شغف، قدر الإمكان. أُحِبُّ العالَم، وأريدُ له أن يكون كما هو تماماً، وأريده الآنَ وإلى الأبد. وأريدُ أن أصيحَ بكل نَهَم: مرّةً أُخرى".

مع ذلك، هكذا فهم يستلزم رفضاً للفناء، وكفاحاً مريراً، ومخاطر تترصدنا في كل خطوة. ولأكون أكثر دقة: "صدّقني، الطريق الوحيد لتحصُد حقلاً وفيراً يكمن في البَذرِ بوفرة، وفي العَيش على حافة الخطر دوماً. ابنِ بيتك على حواف فيزوف[31]. أطلِق سُفنَك نحو البعيد البعيد، نحو بحارٍ لم يعرفها أحد قبلك. عِش في حالة كفاحٍ مستمرٍ ضدَّ مَن هم مثلك، وضدَّ نفسك أيضاً".

هكذا يُطاح بالأوثان، التي سبق لنيتشه عبادتها. لقد علمته تلك الأوثان الرومانسية والحساسية المُرهَفَة، لقد ألهمت فيه عدم الثقة وكره الحياة. ويا للعجب! ها هو يكتشف الآن عِرقاً حرّاً، فَرِحاً، وعميقاً، عِرقاً يحب الحياة ولا يخشى الموت. أبولونيٌّ في لحظات سكينته، ديونيسيٌّ في لحظات نشوته وحماسه المقدَّس، أولمبيّ في كليّته. لقد علمت الأوثان نيتشه التشاؤم، ويا للعجب! ها هو يرى

---

31. فيزوف: جبل بركاني يقع شرقي مدينة نابولي. اشتُهِرَ بثورانه في عام 79م، الذي أدّى إلى دفن مدينتي بومباي وهركولانيوم الرومانيتين.(المترجم).

بعينيه عِرقاً ليس متفائلاً وحسب، بل ويُسخِّرُ تشاؤميته كأداة للتفاؤلية، ليُطيح بذلك بالتعارض التراجيدي عبر قبولٍ بطوليٍ للحياة بكل تجليّاتها، تجليات الأسى من جهة والملذات الحسية من جهةٍ أُخرى.

لقد سبق الصراع الذي استعرضناه منذ قليل انفصال نيتشه عن الدين وعن الأوثان الجديدة أيضاً. وهو لم يتمكن من زعزعة منظوره التشاؤمي والرومانسي بدون كثيرٍ من الاختلاج والارتعاش. "عندما مشيت هذا الطريق وحيداً بدأت بالارتعاش". وبعد مرور شيء من الوقت، مرِضتُ، مستنزفاً بخيبتي التي تلقيتها من أفكارٍ كنت أحبها حتى ذلك الحين، مستنزَفاً بسبب التفكُّر بإشاراتٍ مخيفة. لقد لمعَ في روحي هاجس الخوف من أنني بعد هذه الخيبة محكومٌ بمزيدٍ من عدم الثقة والوحدة وازدراء كل شيء".

في الواقع لقد أصبحت حياته منذ هذه اللحظة كفاحاً وهجوماً لا عزاء فيه وغير مسبوق الضراوة على كل ما كان عزيزاً عليه محبوباً ومحترماً لديه. وبعد اكتشاف حضارةٍ مذهلةٍ كتلك، وجّهَ نيتشه عينيه إلى أوروبا المعاصرة ليخطف أنفاسه مقدار النقمة والسُّعار المدمِّر. ويطرح السؤال الغاضب: "ما سبب كل هذا الانحدار في عالمنا المعاصر؟ اكتشف نيتشه أن السبب يكمن في الأفكار الأساسية

المتضَمَّنة في أسس المجتمع المعاصر. فهاجم تلك الأسس بضراوةٍ رهيبة فاقمها مرضه المتزايد. ومستقيلاً من أستاذيّته بسبب تدهور صحّته، بدأ بالتجوُّل على امتداد شواطئ البحر المتوسط، مستبقاً بقلق السكون المؤقّت لآلامه، ومستفيداً من وقته بالعمل والتفكير والكتابة. بلا عائلةٍ ولا مأوىً أخذ يتجوّل في أراضٍ غريبة، بلا أصدقاء، مريضاً منسياً، بدأ منذ ذلك الحين عَيْشَ أشدّ مآسي حياته تراجيديةً. خاض في كل يومٍ صراعاً يائساً ضدّ جنونه المتزايد. يوماً إثرَ يوم. وفي خلتات صحوته وسكون مرَضه، أنتجَ دماغه المتهاويَ الذابل الأفكار والأغاني وتعاليمَ القوةِ والجَمال المدهِشة.

يُظهِرُ عمل فيلسوفنا بعمقٍ آثار حياته المعذّبة، حياة اختبرها بقسوة المَرَض، والتعب من الكفاح من أجل الصحّة والنور. يا له من فَرقٍ ذاك الذي نجده بين عمله الأوّل (مولد التراجيديا *1869-1871*) وأعماله التي سرعان ما تلتهُ. ففي عمله الأول، وضمنَ روح حماسه الشاب واتقاد النار الأدبية فيه، كشَف سرّ المذبَح المقدَّس، ونصَبَ أمام أعيننا مثال الحياة اليونانية المتفوّق الفاتن. أمّا في أعماله اللاحقة فقد أخذ يُهاجم بهزء وسخريةٍ وازدراءٍ كل نظامٍ ديني أو أخلاقي أو سياسي. لم يُوَفّر أي وجهٍ من وجوه الحياة المعاصرة. وقد شبّه نفسه بقوةٍ كونيةٍ مهَدِّمة، قوة تحفر عميقاً أنفاقاً خفية لتقوّض

أسس أقوى العقائد. قوّة تعمل بشكلٍ منهجيٍّ واجتهاد وصبر تحت الأرض، بعيداً عن الضوء والزمن والناس.

وفي "الإنسان، كل البشر" الذي كتبه في عام *1876* يهاجم نيتشه التشاؤمية الرومانسية، وخصوصاً تشاؤميّة معلّمه الأحَب "شوبنهاور"، الذي أخذ بشجبه وإدانته. فلم يعد يقبل بـ "الإرادة" الكونية كـ"الحقيقة المطلقة". ويدين الشفقة والتضحية بالذات، ونكران الذات. كما لم يعد يقبل بأن هدف الإنسان هو إنتاج عبقري، إذ لم يعد يعترف أيضاً بأي هدفٍ للإنسانية ولا للكون. الفن؟ الشِعر؟ هم خالقون مخادعون لخرافات خطيرة. وفي عمله التالي "المتجوِّل وظلّه- *1880*" يمضي لينفذَ إلى الظِل الذي تتركه كل الأشياء عند مرور شمس المعرفة عليها. فبلا أي بوصلةٍ أو دليل، يصادفُ أن يكون المتجوِّل إلى شمال ظله، وكسولاً وبلا أية حماية، يقوده الظل ليجول قمماً مخيفةً وهاوياتٍ لا قعر لها. وكل الأحلام والقناعات والمفاهيم التي اعتقد أنّه تخلّص منها تبرز أمامه فجأةً كأشباحٍ تشوِّش مخيّلته وتقلقها. ويشعر بأنّه كما لو كان قاتلاً يرى ضحيّته أثناء نوباتٍ هلوسية.

في أعماله الأُخرى "الفجر-*1881*" و"جينالوجيا الأخلاق-*1887*" يهاجم الأخلاق، ويحاول إظهار أن الأخلاق لا تنشأ من السماء، كما

ليس لها أي معنىً كـ"أمرٍ تصنيفي" مطلق. فليس هناك أية قاعدةٍ عامّةً كانت أم خاصّة تحدِّد الخير والشر وترسم معالمهما. وبالتالي ليست الأخلاق سوى أحمال وأعباء الضعيف والمتهالك. ويتابع في أعماله اللاحقة (العِلم المَرِح *1882*، ما وراء الخير والشر *1886*، أفول الأصنام *1889*) إسقاط أوثان أيامنا هذه بكل عزمٍ وسخرية. ومن فيضٍ من الحب للحقيقة، يرفض نيتشه الحقيقة ذاتها: إذ يبين تحليله أنَّ كلا من الحقيقة والزَيف - إذا أخذنا باعتبارنا قدر البشرية الأعلى- يستحقان القبول والاحترام على قدم المساواة.

لكِنْ – وتحت رداء السخرية الشديدة العميقة في أعماله هذه- يشعر المرء بالألم الرهيب الذي يعانيه نيتشه، والمخاض المحزن الذي يوجِّه كل نفيٍ لديه نحو توكيدٍ منتصِر. تبدأ صحّته بالتحسُّن في عام *1882*. فيكتب – متأثِّراً بفرحه- في كتابه "العلم المَرِح": هذا الكتاب صيحة فرح، بعد أيامٍ طويلةٍ مضنيةٍ من البؤس والعجز. إنّه ترتيلة فرحٍ، أعني فيها القوى المنتعشة المتجددة، وولادة الإيمان في الحياة. فجأة أشعرُ بتفتّح مغامراتٍ مستقبلية قادمة، ببحارٍ حُرّة، وبأهدافٍ جديدة يجب أن أُطلِق طاقاتي باتجاهها".

كان يشعر بخدَر النقاهة العذب، إحساس من الفرح والأمل، يشبه وصول الربيع بعد شتاءٍ طويل. يومها يومِض في ذهنِ نيتشه

شخص زارادشت الهدّار، الذي - بعد أن تذوّق طعم أفكاره وانعزاله في الصحراء- ينزل إلى البشر معلِناً لهم دين الإنسان المتفوّق.

" إنني أبلّغكم عقيدة الإنسان المتفوّق. الإنسانية شيءٌ مضى وآن وقت تخطيه وتجاوزه. ما الذي فعلتموه لتتجاوزوا الإنسانية؟ لقد خلقت كل المخلوقات شيئاً ما أعلى من أنفسها، أما أنتم - على عكس كل الطبيعة- تريدون العودة إلى المرحلة الحيوانية بدلاً من تجاوز الإنسانية! ما هي الذروة بالنسبة للبشر؟ إنه موضوع للضحك والعار والأسى. وكذلك هي حال الإنسان اليوم باتجاه عقيدة الإنسان المتفوق: مثار ضحكٍ وعارٍ وأسى. اشهدوا: إنني أمنحكم بشارة الإنسان المتفوق العظيمة. اشهدوا أن الإنسان المتفوق؛ هدف الأرض".

يُشبه المثال الجديد لدى نيتشه تماماً المثال الذي أدركه يونانيو سنوات ما قبل سقراط، أي: القبول البطوليّ للحياة كما هي بكل أفرحها وأتراحها، وبهذا تخضع التشاؤمية للتفاؤلية وتخدمها كمنصّةِ انطلاقٍ نحو استمتاع أعمق بالحياة الأزلية.

فجأة يسقط نيتشه من هذه القمة -التي وصل إليها بعد صراعات مريرة ومِحَنٍ لا عَدَّ لها- في الجنون، ويموت عقلياً، ويغدو عاجزاً عن إكمال كتابه "إرادة السلطة"، الذي كان يخطِّط لعرضِ نظريته - التي وضع أولى خطوطها بشكل أدبي ورمزي في كتابه "زارادشت"- فيه بشكلٍ منهجي وفلسفي متقَن.

هذه كانت الخطوط العريضة لحياة نيتشه وتطوّره الفكري. لقد بذل قصارى جهده في السعي خلف الحقيقة على ذرا محرّمةً ومقفرة. وكما قال: "معزولاً، وبعيداً عن كل إنسان، تجوّلتُ في كل متاهة للمستقبَل، أشبهُ طير التيمُّن؛ رأسي للخلف وأتنبّأ بالمستقبَل".

إلا أنّه مع كل تلك الحياة المعذّبة لم يفقد جأشه ولا وَهنَ وخضعَ. "لا" يقول، و- متأمّلين حياته- نقرأ هذه السطور بحنانٍ عظيم: "لا، لم تضللني الحياة. بل على العكس؛ وجدتها ثريةً، وأكثر سحريةً وإثارةً للرغبة، مذ تلك اللحظة التي كشفت فيها فكرةً مخلِّصةً لي: أنّ الحياة قد تكون في الواقع اختباراً لَمن يسعى خلف الحقيقة. دع تلك الحقيقة تكون معلّماً للاستراحة أو طريقاً يقود إليها، إلى التسلية والمتعة. وبالنسبة إلي هي عالمٌ متخمٌ بالخطر والانتصارات والمآثر البطولية. لقد وُهبَت الحياة لنا لعلنا نكتشف الحقيقة. بقناعةٍ كهذه في القلب يمكننا ليس تحمّل الحياة ببساطةٍ وحسب، بل وعيشها حقيقةً بكل سعادة وغبطة.

نعلم الآن المكوِّنَين اللذين لا غنى عنهما عند أيّة محاولة لفهم فلسفة نيتشه: *1*. زمنه *2*. حياته وشخصيته. وهما في ذهننا، ننوي الآن تبرير انعطافاته الشاذة وتطرفاته الغريبة ونقدها كما ينبغي وبشكل صحيح. بلا أي تجاهلٍ لشجاعته النبيلة وجهوده البطولية لرفع مستوى وعينا وحياتنا إلى مستويات أعلى وأسمى وأطهر.

ومن نافل القول تأكيدنا على أنّه يستحيل استخلاص نظامٍ ثابت الأسس، متناسق منطقياً من تعاليم نيتشه. إلا أننا ومع ذلك سنحاول عرض تعاليم نيتشه – بأكثر منهجيةٍ ممكنة – المتعلِّقة بفلسفة الحق بشكل خاص. تعاليمه حول الطبيعة البشرية والقدَر، حول العائلة، والمجتمع، حول الأخلاق والعدالة والحق القانوني، وحول الدَّولة.

الفصل الثاني

العدميّة

تُعتبَر العدمية وفقاً لنيتشه السِمةَ الأساسية المميّزة لعصرنا – والداء الأخطر المبتلى به-.

فأوروبا تختلج من أقصاها لأقصاها بألمٍ مهلِكٍ يزداد يوماً بعد يوم، مهدَّدةً بكارثةٍ معلّقةٍ وغير مسبوقة. ويتحرّك المجتمع الذي فيها مُساقاً بكل تهوّرٍ وجنون "كنهرٍ يُسرعُ للقاء حتفه".

ما الذي تعنيه كلمة "عدمية"؟ هي الحالة التي تظهر حالما نُدرك وجود فَرقٍ لا يمكن تجاوزه ولا تجاهله بين الواقع والمثال، بين الحياة التي يستلزمها الواقع والحياة التي نعتبرها جيّدةً وقابلة للاحتمال.

متى ظهرت هذه الحالة؟ لكل حضارةٍ وكلّ عصرٍ ما يدعوه نيتشه بـ"جدول القِيَم". بكلماتٍ أُخرى، كل حضارة تقبَل ترتيباً هرمياً للقِيَم، وهي تُخَطِّئ وتدين أفكاراً معيّنة، وترفع وتفرض أفكاراً أُخرى. بالتالي يقوم جدول قيَم الحقبة المعاصرة بتدوين الحقيقة كحالةٍ أفضل من الزيف، والأخلاق أسمى من اللاأخلاق، والحنان واللطف والإحسان

كأرقى من الفظاظة والخبث. يُشكّل هذا الترتيب والتصنيف القِيَمي أساس الدولة والمجتمع ذاته، وهو يُنظِّم سلوك المواطنين والمكافآت والعقوبات، والحقوق الفردية والمدنية، والمسؤوليات. باختصار: هو يحدد ويفرض القواعد التي على كل فردٍ اتباعها في حياته الخاصة والعامة إذا أراد أن يرتقي إلى مستوى حياة "الحق" و"الأخلاق". وبالتالي جدول القِيَم هو أساس كل حضارة وعصر. الأمر الذي يعني ضرورة البحث عن سبب كل تقييم عام للصحة والمرَض في جدول القِيَم الموافق لها.

متأمّلاً انحدار الإنسانية والمجتمع المعاصر، يتعجّب نيتشه: هل يُعقَل أن سبب هذا الانحدار هو جدول القِيَم الذي فُرِض على العالم في أيامنا هذه؟ وبإخلاصه وعزمه غير المساوم، يمضي لتفحُّص وتحليل القيَم المنقوشة على هذا الجدول. ووفقاً له، كانت النتيجة التي وصلَ إليها تحليله هي الآتية: جدول القِيَم المعاصر هو السبب الوحيد للعدمية الملاحظة في أوروبا اليوم.

إنّ القيَم السائدة اليوم – والتي تدَّعي تنظيم الحياة- هي (بعد أي تمعُّنٍ دقيق) تبلغ ذروتها حتماً في العدمية: فعلى أساس جدول القيم السائدة تعتقد البشرية بوجود الله، وبالقدَر الذي يوجِّه البشرَ والكون كله إلى هدفٍ محدَّد. والإنسان اليوم يتعامل مع نفسه على أنّه مركز الحياة وبطلها التراجيدي، جزيء ثمينٌ من الجوهر الإلهي، كونٌ

صغير حقيقي، كائنٌ وسطي، ووسيط بين الله والمادة، مقدّرٌ له حكمَ الطبيعة الخاملة غير العاقلة. ثمَّ نجده فجأةً - حالما ما انكبَّ على مكتشفات العلم الحديث – مشدوهاً من الصدمة: ليس هنالك من قضاءٍ وقدر في هذا العالم، وليس للتطور أية وجهة أو نظام محدد، بل هو أعمىً وكليّ الوجود، وهو يهب الموت كما الحياة، بلا أي سبب ولا هدف. ويُصدَم بأنّ كل كفاحه لإحياء الله كان عبثاً في عبث (الله "الميّت") بسبب استبداله إمّا بالضمير و"فروضه التصنيفية"، أو بالمنطق والثورة الفرنسية، أو – وأخيراً وليس آخراً- بـ"طائفة الإنسانية" الكونتية (أوغست كونت). انتهت كل هذه المحاولات بالانهيار، وإنسان اليوم مجبرٌ على الاعتراف بأنّه لا يعرف، وليس قادراً على معرفة أي شيء. إنّه جاهلٌ تماماً بأصل مجيئه، وهدف وجهته، وبما يجب عليه محاولة السعي خلفه، وبما يمكنه لربما الحصول عليه. "لحسن الحظ يموت الإنسان بسرعة. كذلك هي الحياة على الأرض عموماً: لحظة عابرة، استثناءً عبثياً، شيئاً لا أهميّة له في الوصفِ الشامل للحياة. هذه الأرض مثل أي نَجمٍ آخر: وَمضةٌ بين ليلتين لا متناهيتين، مصادفة لا سبب لها، بلا إرادة، بلا ضمير، ونتاج ضرورةٍ عمياء بحتة".

ومواجَهاً باستيقاظٍ وإدراكٍ مفاجئ نتائجه تتعارض بشكلٍ صادمٍ مع تعليمات "جدول القِيَم"، يدفَعُ الإنسان دفعاً نحو الخيبة واليأس.

وبكل ما هنالك من السخط والسخرية المرة، يرى نفسه مجبَراً على رفض الحلول المُعَزِّية التي تقدَّم له بين الحين والآخر. ليصِلَ بين ثنايا تلك الصيرورة والحالة المريرة إلى رفض الله والواجب وإيمانه بكل تحسينٍ وتقدُّم، واجتماعيته التي تدفعه إلى الشفقة على إخوته من البشر، وأخيراً حتى إيمانه بالعِلم. هذه السلوى التي تحتال غريزة الحياة لديه للحفاظ عليها. ليُعلِنَ أخيراً مع هارتمان[32] وشوبنهاور- أنصار الموت ورفاق المَرضى- أنّ الحياة بلغت ذروة معرفتها بإدراك عبثيتها وغياب المعنى فيها، ليَصِلَ بذلك الآن إلى الرغبة بعدم الوجود.

هكذا يُصدَم الإنسان المعاصر فجأةً – بعد تربيته وتوهينه بأخبار الوصايا العشر المزيَّفة- بالنتائج القاهرة التي يفرضها العلم الحديث، لتنتصب أمام عينيه الأطروحَةُ المهولة:

ليس أمامه سوى أن يختار بين إمّا أن يُدمِّرَ جدول القِيَم السائد، أو يقبلَ بتدميره هو ذاته.

ليس هنالك من خَيارٍ ثالث أبداً.

في الواقع: إمّا أن جدول القِيَم – الذي بواسطته يمكن للإنسان أن يُحِبَّ العالم (عالمٌ فيه الله، والمعنى...) المختلف بالكامل عن العالَم الحقيقي، ويكتشف الإيمان فيه- هو صحيح، وبالتالي سيقوده ذاك

32. هارتمان: طبيب ومحلل نفسي نمساوي، عاش بين عامي 1894-1970. يُعَدُّ مؤسس علم الأنا في الولايات المتحدة.(المترجم).

الجدول بالضرورة إلى نفي الحياة الواقعية وعدَمها. أو أنّ جدول القِيَم ذاك هو خاطئٌ، وبالتالي سيكون الحكم الذي أصدرناه على حياتنا الواقعية استناداً له خاطئاً هو الآخر. وفي هذه الحالة الأخيرة سيتحتم علينا التخلص من هذا الجدول، ونَصْبُ واحدٍ آخَرَ في مكانه، جدولاً متناغماً مع الواقع ومع الحقيقة التي تم اكتشافها علمياً.

بالتالي، تطرح العدميّة حلَّين متعارضين تماماً للقضية التي ناقشناها:

تدمير الحياة ذاتياً ومحاولة التخلص منها.

التخلّص من جدول القيم السائد حالياً وحسب، الأمر الذي سيتبعه قبولٌ مفعم بالفرح وبطولي للحياة.

وهنا نصل إلى التمييز الرئيسي الذي يطرحه نيتشه فيما يتعلّق بحالة عدم الرضا الحاضرة الآن:

عدميّة تشاؤمية.

عدمية تفاؤليّة أو ديونيسية.

اعتبر نيتشه العدمية التشاؤميةَ هي مرضٌ وانحطاط، ليست ظاهرةً شاذّة حقاً، بل نتيجةً تطورية ومبدءاً فيزيولوجياً في الواقع. وقد رأى أن الاشتراكيين هم إما دجالون غوغائيون أو حالمون سُذّج عندما يؤكدون للناس – آخذين اتجاهاتهم من جدول القيم السائدة- أنّهم في

موقع مَن يمكنه اكتشاف تنظيمٍ اجتماعي لا معاناة فيه ولا فقر ولا إفقار. وكأنهم يُصدرون أوامر تعلن أنه يجب الحفاظ على المجتمع في حالة شبابٍ دائم، ويمنع منعاً باتاً أن يتأثر بمرور الزمن والتغيرات الاجتماعية أو التطور التكنولوجي. إلا أن المشكلة تكمن في أنّ "المرضَ والشيخوخة والبؤس هي أشياء لا يمكن التخلص منها بقوة الإرادة".

تكمن الخدعة الرهيبة التي يعاني منها المجتمع اليوم في الظن بأنّ أسباب الانحطاط هي هذه الأعراض التي هي في الحقيقة ليست سوى نتائج لذاك الانحطاط. فالجريمة وإدمان الكحول وانحطاط الزواج والهستيريا وانعدام الأخلاق ونقص الإرادة كلها: ليست بنات الانحطاط، بل هي آباؤه. وباعتبار الأمر كذلك، سنواجه حتماً أحد هذين الخيارين:

إمّا أن يصبح المرء – مواجَهاً بالحطام الروحي لعالم اليوم، ورؤية موت كل الآمال التي ادعى الدين والمجتمع والأخلاق ضمانتها، وموت جدول القيم- ضعيفاً منهاراً، عاجزاً عن تحمّل أعباء الحياة بلا أي هدف ولا إله. وهو ما يسميه نيتشه بـ"العدمية التشاؤمية" التي يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن، لأنها تلوّث وتحوّر الكوكب بأكمله إلى ملجأ فقيرٍ كريه.

أو أن تقفَ الإنسانية ككل – مواجهةً بذاك الانحطاط الإنساني ذاته- مترددةً لبرهة من الزمن قبل أن تخطو خطوات قوية واسعة بكل

فرح وعزم. فرحةً بكل ما فيها لتخلّصها من ذاك الحمل الثقيل، حِمل الآمال العبثية والوعود الزائفة. وحالما تبدأ بالتقدّم بثبات، ستصبح مصدر الهدف والاتجاه في الحياة، باعتبار أنّه لا هدف للحياة بذاتها ولا اتجاه.

بالتالي أصبحت العدمية الأوروبية المعاصرة – وفقاً لنيتشه- دواءً ذا أهميّة حاسمة، تعطى للمتشائمين الميتين، لتمنح الموت لبعضهم والحياة للبعض الآخر.

في وجه أطروحةٍ كهذه، ما هو قدر الفلسفة عموماً، وفلسفة الحق والدولة خصوصاً؟ يرى نيتشه أن قدر هذه الأخيرة هو مهمة تشكيل المفاهيم والأعراف التي تنظِّم العلاقات البشرية بحيث تدفع إلى انتصار النوع الديونيسية من التشاؤمية، والامتنان والقبول العميق للحياة الذي لا صلة له بآمالٍ مزيّفة. ولتحقيق هذا القدر العظيم، تترتب على الفيلسوف مهمة مزدوجة:

إذا أردنا تحديدها سلباً:

تقع على عاتقه مهمة إعادة تقييم كل الوصايا العشر السائدة اليوم (واحدةً إثر واحدة)، وتحليلها بإخلاص وشجاعة من أجل إثبات أنها مؤذية ومدمِّرة للحياة.

من أجلِ فهمٍ عميقٍ وشاملٍ لفلسفة نيتشه حتى أعمق أعماقها، وتبديد التنافرات المفترَضة التي يدّعي كثيرون اكتشافها في أعمالهم،

لا مفرّ أمامنا من التأكيد على ما يلي: لا يدّعي نيتشه أن القيم موضع التساؤل يجب أن تُدَمَّر لأنها ليست حقيقية؛ بل لأنها لا تساهم في حِفظ الحياة وتحسينها. يبدو نيتشه في أعماله الأولى متردداً، لكنه سرعان ما يبدأ بالدفاع عن فرضيته بقوة شيئاً فشيئاً: هل يُعقَل أن الحقيقة تُضِرُّ أحياناً بالحفاظ على الحياة، ومن ثمَّ يجب التخلص منها؟ لا يهم مدى القيمة التي يجب أن نعزوها إلى الحقيقة والحياد، إذ ما زال يجب علينا الاعتراف بقيمة أكبر للشكل المحض، للخداع، للأنانية، للرغبة. قيمةٌ أكبر وأكثر فائدةً بكثير لتحسين الحياة. "إن عدم قابلية أطروحة ما للدفاع عنها ليس مبرراً كافياً لرفضها. يجب طرح المسألة بشكل آخر: إلى أي مدىً هي مفيدة، أو مؤذية، للحياة؟ وسنكتشف على الأرجح حينها أن أكثر الأطروحات مكراً هي أكثرها أيضاً فائدةً لحفظ الحياة".

بتحليل جدول القيم السائدة في أيامنا هذه من هذا المنظور، نكتشف أن هذا الجدول هو من عمل بشرٍ ميتين ومنحطين استفادوا منه بحيث يمكنهم بواسطته التعلق بيأسٍ بالحياة. وهو ما ثَبُتَ أنه – في بعض الأحيان- مفيد، لأنه يعمل بطريقةٍ ما – بحكم سريّة زيفه- على تحسين الحياة. إلا أنّ جدول القيم المعاصر هو الآن غير فعال وبلا أية فائدة على أية حال. وهو ليس قادراً بعد الآن على خداع البشرية بأكاذيبه. لقد فقد هذا الجدول كل قوته وإمكاناته، ولم يعد

هناك من يهتم به أبداً، وهو يتحوّل بسرعةٍ إلى خطرٍ أكبر مع دفعه الناس أكثر نحو الشكوكية والتردد. بل وحتى نحو الخيبة والتشاؤمية.

إن مهمة الفيلسوف تتقوّم في الإطاحة - مرةً واحدةً وإلى الأبد- بهذا الجدول الخبيث الكارثي، وتبيين أنّ حياة المؤمن بالله والفاضل الملتزم بواجباته والساعي خلف الامتياز والفيلسوف الذي يلتمس، خلف تدفق الأشياء، ما "هو حقيقي"، هي ليست سوى عملِ كائناتٍ ميّتة وحيويةٍ متدهورة.

مع كل ما سبق، لا يجوز للفيلسوف الاستراحة بعد وصوله هدف السَّلبِ والتدمير غير المشكور عليه هذا. فمهمته هي:

إذا أردنا تحديدها إيجاباً:

يجب أن يجتاز تحدي العدمية التامة، وبعد رفضه للقيم السائدة حالياً يجب أن يؤسِّسَ لِقيَمٍ أُخرى، يمكن بواسطتها ليس تبرير الحياة والكون وحسب، بل وجعلها محمولةً وقيّمة. وبحماسٍ يصلح ليكون قدوةً، يجب على الفيلسوف أن يجعل الحياة حالةً يمكن القبول بها. الحياة في كلّيتها وفي كافة تجلياتها، بدنسها وقُدسها، جيّدها وسيّئها، أخلاقيتها وانحلالها. ويكفينا تماماً إذا كانت هذه المتناقضات تسمح بتعزيز الحياة وجعلها أكثر تناغماً، وترفع البشرية إلى مستوياتٍ أسمى، فإن الهدف الذي يجب أن يضعه نصب عينيه هو: ميل البشرية الدائم والأبدي لخلق نوعٍ بشري جديد – نوعٍ أقوى وأسمى-

أكثر كمالاً. وهكذا إلى الأبد، إذ لا سقف أمام ما يمكن للنوع البشري بلوغه ولاحدود.

ينتج مما سبق أن العلاقات البشرية هي علاقات بين الدولة ومواطنيها، كما أنه يجب تنظيم الواجبات المدنية والفردية بما يتناغم مع هدف هذا النوع وقدره.

******

نلاحظ مما سبق أن فلسفة نيتشه تنقسم أيضاً إذا تعمقنا أكثر إلى وجهين إضافيين:

وجه سلبي، أطاح نيتشه بواسطته بجدول القِيَم السائدة.

وجه إيجابي، أسس نيتشه استناداً إليه جدولاً جديداً ذا تصنيفٍ مختلفٍ للقِيَم وأمثلةٍ جديدة للبشرية والمجتمع والدولة.

يمكننا في الوقت نفسه شرح الطبيعة المزدوجة لعمل نيتشه وفق مسارَين: من جهة هجاء وسخرية، ضحك شيطاني حقيقي، هزءٌ وازدراء. صوتٌ كهذا وحده ما يناسب عملاً عاقد العزم على النَفي والتدمير. من جهةٍ أُخرى، نجد في عمل نيتشه غنائيّةً واتساعاً نبوئياً، و"الحب العظيم"، والحماس الديونيسي، وفرح خالقٍ حقيقي.

إن جوهر ما نعمل عليه – والذي نوشك على دخوله- هو الآتي:

أولاً: سندرس الجزء السلبي من تعاليم نيتشه فيما يخص فلسفة الحق والدولة، وسنرى كيف حاول نيتشه تبيين أن قِيَم الوصايا

العشر لأيامنا هذه – كما تنطبق هذه الأخيرة على طبيعة البشر والعائلة والأخلاق والحق والدولة وقدرهم- هي تجليات للانحطاط، وهي تؤدي بنا بالضرورة إلى العدمية، ويجب التخلص منها بالكامل. وبعد قضائه على تلك القيم، يرشدنا نيتشه إلى الجزء الثاني من تعاليمه، الجزء الإيجابي، الذي يؤسِّس فيه الجديد، جدول القيم الخاص به، والذي يبني عليه فهماً جديداً للإنسانية والكون. يوسِّع هذا الفهم الجديد الحياة، فتهتزُّ بأطوال موجات الواقع الذي كشفه لنا حديثاً العِلم المعاصر.

لنُلَخِّص:

لقد تفحّصنا حتى الآن أزمنة نيتشه وبيئته، شخصيته والتأثير الذي مارسته عليه الرومانسية الألمانية، شوبنهاور وفاغنر. كما تفحّصنا اكتشافه للعالم اليوناني الكلاسيكي، وإطاحته بكل ما كان يعتقد به حتى تلك اللحظة، وانفصاله المفجع عن الدين وعن شوبنهاور وعن فاغنر. ثمّ تحوّله إلى المثال اليوناني، وبعد مقارنته لهذا المثال بحالة البشر في أيامه: اكتشافه لمصدر السقوط الحديث لجدول القيم الحالي (نتاج الضعفاء والمنحطين). ثمَّ حدد لنفسه مهمةً مزدوجة: الإطاحة بجدول القيم هذا، ونَصبَ واحد آخر محلّه يسمح بقبول الحياة والواقع بشكلٍ بطولي.

الفصل الثالث

الطبيعة البشرية

من الضروري قبل تفحُّص أي نظام اجتماعي – والذي فيه تلعب مفاهيم الحق والدولة دوراً حاسماً - أن يبحث المرء مفهوم الطبيعة البشرية ويفهمه. ما هو أصل الإنسان؟ ما هي طبيعته؟ ما هي رسالته؟ سنجد هنا مشكلتَي ماهية الإنسان والمجتمع كلتيهما تتراقصان في توازن تام.

١- الإنسان عموماً:

كيف فهم نيتشه هذه المشكلة؟ وكيف حلّها؟

لقد ادّعت كل العقائد الدينية والفلسفات السائدة – حتى أمدٍ قريب- أنّ الإنسان مكرَمٌ (كائنٌ يتمتع بـ"طبيعةٍ كاملة") وهو مخلوقٌ من قِبَل الخالق بعنايةٍ خاصة، وأنّ الهدف من خلقه هو التسيّد على بقية المخلوقات الأُخرى، وأنّه وُهِبَ روحاً خالدة يحملها في داخله كرمى لحياةٍ أبديّةٍ مستقبليّةٍ ينالها بعد الموت.

وما حدث أنّه وتحت عبءِ آمالٍ عبثية، شوَّه البشر طبيعتهم وقدرهم بكل وحشية، وذلك في محاولتهم للتناغم مع هذا الإيمان الولوع بالكون الذي يسعى جاهداً نحو هدفٍ محدد. ووفقاً للاعتقاد ذاته - مطبقين إياه على كل من الجوهر الأرضي كما السماوي- افترضوا أنّ الطبيعة البشرية تتجه هي الأُخرى نحو هدف محدد لها سلفاً.

ولكنْ – وبكل ما في الحياة من إدهاشٍ وعَجَب- فتّتت العلوم الطبيعية أحلامهم كلها، وبيّنت أنّ الإنسان نبتةٌ أرضية، وهو مجرّد درَجة أعلى في سلَّم الحياة العضويّة، وأنّ "كل موجودٍ هو في حالة تدفُّقٍ وجَرَيان" بلا هدفٍ ولا غرَض، بلا إرادة، ولا قوّة مشرفةٍ موَجِّهة.

لقد انتبه نيتشه حالاً - بينما يراقب تشظّي آمال البشر هذه – إلى المصدر الرئيسي للعدميّة والتشاؤميّة الحديثة. فحتى تلك اللحظة كانت البشرية تعتبر نفسها في مركز كل الوجود، و"ملحَ" الأرض. ولكن وفجأةً وبكل ما في الحياة من إدهاش، أدركت أنّ البشر ليسوا سوى أحفاد الوحوش، وأنّه ليس من فرق بينهم وبين باقي الوجود العضوي سوى بالدرَجة. وعلى الرغم من قبول نيتشه لنظرية داروين حول أصل البشر، إلا أنّه هاجم نظرية داروين بشراسة في جانب الانتخاب الطبيعي منها، أي جانب الوسيلة التي تحقق الطبيعة بواسطتها هدف "كمال" كائناتها.

لكن المسألة برمّتها تكمن في أنّه ليس هنالك من كمال كهذا. إذ لو أخذنا الطبيعة ككل، سنرى أن حيوات النباتات والحيوانات لا تتقدم من شكلٍ أدنى إلى شكلٍ أكثر كمالاً. بل إنّ كل شيءٍ يحدث عشوائياً، بلا أي نظام، وبلا أيّة خطة، وبلا أي هدف. كما أنه كلما زاد تعقيد الأشكال وغناها اختفت بسهولةٍ أكثر، ووحدها الأشكال الأدنى والأقل كمالاً هي من تبقى. أي إن الأشكال الأكثر تعقيداً هي أكثر ندرةً، ويصعب الحفاظ عليها وبقاؤها جداً. أما الأشكال الأدنى فهي الأكثر سيادةً وخصوبة.

غياب الغاية وسيادة ذات الأنواع المتوسطة الجودة والقطيعية نجده ذاته في التطور التاريخي للبشر.

2- تطور الإنسان تاريخياً:

ليست البشرية كلًّا مترابطاً متناغماً. بل هي شكل من الظواهر الحيوية التي تتضمن الصعود والهبوط. ليس للبشرية شبابٌ ولا نضجٌ ولا شيخوخة، بل على العكس تماماً، تتطور كل الشرائح البشرية فوضوياً وبشكل مضطرب، إحداها تلو الأُخرى كما كانت دائماً، وليس من المستبعَد أبداً أن يكون البشر بعد عدة آلاف من السنوات "أصغر" من معاصرينا الحاليين. وبنفس المنطق، سنجد الشيخوخة والتدهور في كل الحِقَب.

لقد استنتج نيتشه أن البشرية – كنوع- لا تبدي أي تقدم منهجي مضطرد عبر الزمن. ومستواها الإجمالي لا يتقدم أو يرتقي ولو خطوةً واحدة. إنّ وجود أنماط أعلى ضمن النوع البشري ليس بأمر يمكن لأي شخصٍ إنكاره- مثله في ذلك مثل بقية الحياة الحيوانية والنباتية-، ولكن حتى هذه لا تُحفَظ لوقت طويل؛ إذ إنها هشة ومعرَّضة لكل شكل من أشكال الهجوم من قبل الخارج، والانحطاط والتدهور من الداخل. إنها حالات متطرفة، وهذا بحد ذاته سلفاً علامة على التدهور والانحطاط.

الجمالُ عابر، والعقيمُ مميَّز، ولا ورثةً لقيصَر. إنّ المميَّز بشكل خاص هو الآلية الأكثر حساسيةً، ولهذا هو الأكثر هشاشةً والأقصر حياةً.

لقد حاول نيتشه شرحَ الظواهر الكونية باستخدام مفهومٍ أساسيّ ابتكرته فلسفته: "إرادة القوة". فمنَ المحتوم في صراعٍ وجودي – كما يقول- هلاكُ الاستثناء لصالح القاعدة. حتى لو كان الأقوى والأكثر كمالاً: سيبقى الأفضل معزولاً. هم يواجهون الغرائز المنَظَّمة لدى المجموعة، ويواجهون بقوة القطيع والأفراد المتوسطين الجمعية العنيدة والمنتظمة هيكلياً، قوّةٌ أكثر تكيّفاً مع البيئة مما هم عليه. فإذا أردنا تلخيص هذا الواقع المُر بقانونٍ أخلاقيّ موجَز، يمكن أن يكون بالشكل الآتي:

"الشكل المتوسِّط أكثر قيمةً من الشكل الأعلى، والأدنى من المتوسِّط أكثر قيمةً من المتوسِّط".

الطبيعة زوجة أبٍ قاسية لكل طبعٍ ممتازٍ متفوِّق.

وإنّ الشوق للمساواة والعدَم محميٌّ أكثر (من قبل الطبيعة) من التوق للحياة، وهو قانونٌ سبقَ وأنْ اكتشفه بوذا والمسيح وشوبنهاور وهارتمان، الذين أعلنوا جميعاً الرسالة: من الأفضل للمرء ألا يعيش على أن يعيش قلِقاً بكل وضوح، يصيح نيتشه:" إنني أعلنُ ثورتي ضد طريقة وصف الواقع هذه التي تستخلص منه قانوناً أخلاقياً. ولهذا أحملُ كرهاً رهيباً للمسيحية لكونها نجحت بخلق كلماتٍ ووضعيات ممتازة إلى حد تغليف واقعٍ رهيب بقناعٍ من الفضيلة والعدالة والألوهة".

ولكن وعلى الرغم من ثورته، لم يسمح له إخلاصه العميق بالمراوَغة أو الصمت. لذلك اعترف أنه وبعد بحثٍ طويل وحيادي استنتجَ أنّ هناك قانوناً واحداً ووحيداً يحكم ليس كل أنواع الحياة الحيوانية والنباتية وحسب، بل والبشر أيضاً، هو: إرادة القوة. فالغرائز تحكم أفكارنا ورغباتنا وسلوكياتنا كلها، وهي جميعاً تدور حولنا وتنشأ من غريزةٍ واحدة أساسية، منبعٍ للتجليات الحيوية. إن قانون السيادةِ هذا أعلى من قانون داروين حول "الصراع من أجل البقاء"، وهو متجذِّرٌ بعمقٍ في الطبيعة ويميلُ لتجسيد نفسه والظهور

كمنتصر، محرزاً ذلك غالباً على حساب تعريض الحياة بأكملها إلى خطرٍ شديد والتسبب بتدميرها. والأمثلة على ذلك كثيرة من التاريخ ومن كل تفحُّصٍ حقيقيّ ومستنيرٍ للطبيعة البشرية. فكلُّ أفعالنا الظاهرة وميولنا الخفيّة خاضعة للغريزة. وليس ميلنا للحقيقة والفَن والتقدُّم سوى مظاهر لهذه الغريزة التي تنزع للسيادة. على سبيل المثال، لم ينمُ التوق لاكتشاف الحقيقة في الأصل بسبب توقُّع فوائد تكمن في طبيعة الحقيقة ذاتها وجوهرها، بل بسبب الفوائد المتوَقَّع للحقيقة أن تقدّمها لأولئك الذين يمتلكونها في مقابل من لا يمتلكها. ولاحقاً، عندما تصبح الحقيقة جزءاً أصلياً من الحياة الروحية، حينها فقط يدفع السعي خلف الحقيقة البشرَ إلى التماسها في ذاتها وحسب. وبالطريقة نفسها يمكن للمرء توضيح أصل الأخلاق، ومفاهيم الحق والمنظورات الجَمالية. مفاهيمَ كانت تُلتَمَس كرمى للتفوق والميزات المقارَنة التي تسبغها على مَن يملكها، ليُسعى لاحقاً وحسب – عندما تكون قد تحوَّلَت لحاجات نفسية- خلفها كشيءٍ في ذاته (مستقلَّةً عن كل ميزةٍ ومَنفعَةٍ تنتج عنها).

لقد استلهمَ نيتشه هذه التعاليم من تعاليم هربرت سبنسر[33]. حيث بيّنَ سبنسر أنّ الإنسان يميل دائماً وأبداً إلى الحقيقة والسعادة

33. هربرت سبنسر: فيلسوف وعالم اجتماع إنكليزي، عاش بين عامي 1820-1903. طبق نظرية الانتقاء الطبيعي الداروينية على المجتمعات البشرية.(المترجم).

والسلوك الإيثاري، بينما كان نيتشه – بعكسه- يعتقد أنّ الحدود والشروط المسبقة لهذا التوق البشري للحياة لا تتمثّل في السعادة وحسب، بل وفي الأسى، ليس في ميول "خيِّرةٍ" وحسب، بل وفي أُخرى "شريرة" أيضاً، ليس في الحقيقة وحسب، بل وفي الزيف أيضاً، ليس في الإيثار وحسب، بل وفي الأنانيّة أيضاً.

بهذا الشكل كان نيتشه قادراً على تزويدنا بأكثر الاعتبارات كَشفاً وإثارةً للاهتمام بكل ما يتعلق بتطور الإنسان التاريخي.

وعند أي انحراف لغرائزه المختلفة، يتوقف الإنسان عن كل تشيء وتأليه لما يُشبع غرائزه. لقد ألَّهَ إشباعات كتلك كآلهةٍ منفصلةٍ مميَّزة، كمُثُلٍ خارجه وأعلى منه. لقد نسيَ أنه هو نفسه مَن خلق تلكَ المُثُل، كوسيلة لتلبية احتياجاته. وبدلاً من القول: "أنا أحيا لتلبية غرائز الحياة الأساسية لدي، وبالتالي سأسعى خلف الخير والعَدل والحقّ وحسب، طالما هي تخدم هذا الهدف"، هو يقول: "إنّ الخير المطلق، والعدل المطلق، والحق المطلق هو ما أسعى خلفه، ليس لأنهم نافعون لي (وهو ما سيعتبر تجديفاً في نظره)، بل لأنهم هم الخير والعدل والحق". وأيضاً: "حياتي ليست سوى وسيلة أو أداةً لتحقيق هذه المُثُل".

هكذا، وشيئاً فشيئاً، وعبر تأثير الفلاسفة ومؤسسي الأديان – الذين ضمرت فيهم غريزة الحياة بسبب فرط تضخم الميل العلمي أو

الأخلاقي- تشوَّه الجوهر الحقيقي في الإنسان، وانحرف تطوره التاريخي إلى طريقٍ آخر، وأُنزِلَت الحياة إلى مرتبةٍ أدنى. وكل ما كان قد تم اكتشافه واستخدامه كوسيلة (حتى تلك اللحظة)، أُلِّهَ وحُوِّلَ إلى غاية وهدف.

3 - مكونات الطبيعة البشرية:

أ- الروح:

يعزو نيتشه النظرية الحديثة (إلى حد ما) حول الروح البشرية – وهي نظرية تخلق هوةً سحيقةً بين الطبيعة الحية (ذات الروح) والطبيعة غير الحية (التي لا روح فيها) – إلى التأثير التشويهي الذي مارسته الأديان والتعاليم الفلسفية.

ففي البداية، من الصحيح القول إنّ البشرَ نسبوا روحاً ليس لأنفسهم وحسب، بل وإلى الطبيعة بأكملها، مشخصنين بذلك و"مُرَوحِنين" الأشجار والحيوانات والصخور والبرق والعديد من الظواهر الطبيعية الأُخرى، مصوِّرينَ إياها بصفاتٍ بشرية من مثل: اللطف والقسوة والحنان والانتقام وغيرها. هكذا رُئِيَت الروح متخلِّلةً كل شيء، ورابطاً يصل البشرَ والطبيعة التي من حولهم كلها.

لاحقاً، ولجعل البشر يحتقرون الحياة الحقيقية ويتبعون نظرياتهم، عمدَ الفلاسفة ومؤسسو الأديان إلى ترقية البشر، وجعل الروح ميزةً خاصَّة بهم وحدهم. وكما سبق ورأينا، كانت غريزة الحياة

لديهم قد ضمرت بسبب تضخم غرائزَ أُخرى. وافترضت نظرياتهم حياةً أُخرى، بل حرفياً: "الحياة الأخرى"، كمركزٍ وهدف وغاية. وبادّعائهم حصرية وجود الروح في البشر وحدهم وحسب، نجحوا بتحقيق أمرين اثنين:

الأوّل هو فصل البشر عن بقية الطبيعة، الطبيعة التي لا روح فيها.

الثاني هو حددوا مكاناً للإنسان، مكاناً لمكافأةٍ أبدية له. وبإمكان المرء الوصول إلى ذاك المكان عبر اتباع وصاياهم، وإلا فليس له - في حال مخالفته إياهم- سوى العقاب الأبدي.

ووفقاً لنيتشه، هذه الذهنية هي ذهنيةٌ كارثية بالنسبة إلى فهمنا للواقع. ولكن ولحسن حظنا وبسبب التطورات الأخيرة في العلوم، انهارت كل تلك المفاهيم السابقة المتعلقة بالروح والخلود، وظهرت حقبةٌ جديدة، حقبةٌ رائعة وقوية، وهي الحقبة الصحيحة لأولئك القادرين على المقاومة والنجاة بعد تدمير ضحالة الامتياز البشري.

مرحباً بالحقبة الجديدة، صاح نيتشه بانتصار: "أحد أكثر انتصارات الروح البشرية فائدةً كان رفض وجود روحٍ خالدة. للبشرية الآن الحق بالانتظار، ولم تعد مجبرةً على الاندفاع وقبول أفكارٍ لم يتم اختبارها جيداً، وكانت تُعدُّ سابقاً شديدة الضرورة. إذ اعتمد خلاص الروح الخالدة المنحوسة في تلك الأيام على قناعات تشكلت أثناء مدة قصيرة من الحياة الأرضية، ودفعت المرء إلى اتخاذ قرارٍ بأسرع ما

يمكن في شأن قضايا شتى. للمعرفة أهميةٌ رهيبة. وأخيراً اكتسبنا - ويا للعجب- الحقَّ بتضليل أنفسنا، بمحاولة الفشل، بقبولِ أفكارٍ لفترةٍ وجيزةٍ فحسب، وبالميل دوماً نحو أفكارٍ جديدة، والخَطوِ قُدُماً والمِضي. وهكذا وأخيراً غدا في متناول أفرادٍ وأجيالٍ بأكملها الحقّ بمحاولة اجتراح أفعالٍ مُذهِلة، كانت لتبدو في زمنٍ مضى جنوناً محضاً وتجديفاً بالسماء والأرض.

على الرغم من كل ذلك، لم يستطع نيتشه إنكار أن هذا الإيمان القديم بوجود الروح عملَ على تهذيب العالَم الداخلي للإنسان إلى حدٍّ كبير. وهنا نشهد مجَدَّداً النصر لإخلاص نيتشه وصدقه. فوفقاً له، أصبح عالمنا أكثر عمقاً واتساعاً بدءاً من اللحظة التي توقَّفَ فيها تدفق العواطف البشرية نحو الخارج. ومواجَهَةً بالحواجز الاجتماعية، وبلا أي قدرة على الخروج والانعتاق، انقلبت غريزة الاستقلال والحرية اللامحدودة التي فُطِر عليها البشر ضدهم. هكذا وُلِدَ "الوعي المُعَذَب". النقمة والقسوة والحاجة للسحق والاضطهاد انقلبت كلها نحو الداخل، وحوّلَت الآن ضدَّ مَن كان هو أيضاً مالكاً لغريزة الحرية. بشكلٍ مشابه، عندما توضع الحيوانات في قفصٍ تبدأ بِعَضِّ القضبان الحديدية جارحة نفسها بشكلٍ يتعذر معه الشفاء، مهتاجةً وهي تتذكر حريتها السابقة في الغابة.

ومنذ تلك اللحظة، ظهر أخطر الأمراض البشرية وأكثرها مفارقة، ظهر المرَض الذي لم تستطع البشرية الشفاء منه حتى الآن: القَطع

المفاجئ لكل صلةٍ بالماضي الحيواني، قفزةٌ نحو أسلوب جديدٍ في الحياة، إعلانٌ للحرب ضد الغرائز القديمة التي تحمّلت المسؤولية – حتى تلك اللحظة- عن كل ما كان قوياً ومرعباً في البشر. ففي النهاية، كانت هذه الروح البشرية المختَرَعة حديثاً قد زوّدَت العالم بعنصرٍ هائل الجدَّة والعمق والغموض، مفعماً بالتناقضات ومحمَّلاً بالآمال، إلى الحدّ الذي غيَّر معه وجه الأرض كلّها. ومن هنا بدأت البشرية بإظهار الكثير من الفضول العقلي والاستباق القَلِق والأمل اللامحدود.

من هنا، فإنّ الدخول إلى عالم مفهوم الروح يغدو حدثاً ذا نتائج شديدة الأهمية. وهذا ليس لأن الروح الشهيرة موجودة، بل لأنه غدا بالإمكان الآن (عبر الإيمان بها) تشجيع الإيمان بوجودها. بالتالي يمكن خلق حاجات جديدة لم يسبق وسمعنا بها، وزيادة مستوى الوساطة البشرية، كما يمكن للإرادة البشرية الامتداد وسيادة على ما بعد هذا العالم وهذه الحياة وهذا الزمن. لقد أصبح مفهوم الروح هذا متداخلاً بلا نهاية مع المظاهر الحيوية والروحية التي تمارس تأثيراً لا محدوداً على الأخلاق ومفهوم الحق، والدولة. كما فعلت مع كل أوجه النشاط البشري الأُخرى.

ب - الإرادة الحرة:

باختصار، يرفض نيتشه بشدّة كل الادعاءات المتعلقة بوجود روحٍ خالدة بدون تجاهل النتائج الرهيبة التي تنتج عن هذا الاعتقاد. كما

يرفض أي اعتقاد بوجود مبدأ رئيسي آخر لجدول القِيَم الحالي: "الإرادة الحرة".

فوفقاً لنيتشه ليس هناك أية إرادة حرة بأكثر مما هناك إرادة غير حرة. هناك إرادات ضعيفة فحسب، وآثارها غير ذات أهمية. فأحكامٌ من مثل: "القوي يهيمن على الضعيف" و"النور يُشرق"، هي ليست سوى تكرارات عديمة المعنى: فلا إرادة للنور تسمح له بإشراقٍ أو غير إشراق. لا نور هناك إلا في حال الإشراق. كما أن الهيمنة التي تتبدى في سلوك القوي ليست بشيءٍ موجود بذاته وفي ذاته بغض النظر عن مظهره. الهيمنة لا توجد إلا في تجليها ومظهرها وبالقدر الذي تبدي نفسها فيه، هي ليست أساساً سابقاً لشيء ما. ينتج من كل ما سبق عدم وجود أية إرادة حرة أو غير حرة يمكن نسبها إلى القوة والهيمنة. ليس للقوة والهيمنة والسلطة من خيارٍ حول تجليها في الخارج بشكلٍ معتدلٍ أو شديد. إلا أن الوعي الشعبي كان عاجزاً – على أية حال- عن النفاذ إلى حقيقة هذه المسألة، فقام برسم حدٍّ فاصلٍ بين الإرادة وتجلياتها. وخلف النتائج الملموسة للإرادة القوية، أي خلفَ آثارها، رسمت المخيلة الشعبية كينونةً أسمتها بـ"الإرادة الحرة"، وعزَت لها القدرة على إظهار نفسها بحرية، بشكلٍ أو بآخر.

إن مفهوم الإرادة الحرة هذا ما هو إلا اختراعٌ لفَقَه الضعيف والمنحط، والذي لا طريقة لديه لتدبُّر إظهار نفسه كمساوٍ أو حتى

متفوق على أسياده الطبيعيين، إلا عبره. فإذا اعتبرنا أن جدارة أي إنسان لا تعتمد على كمية السلطة التي لديه، يتبين لنا أن مَن يطبّق سلطته بشكلٍ معتدلٍ ومتساهلٍ – وبالتالي بشكلٍ ضعيف- هو متفوّقٌ على العاجز عن كبح إرادته ويميل لإبدائها بشكلٍ أكثر هيمنة وسيطرة وقسوة.

لقد اعتنق الأقوياء نظرية الإرادة الحرة هذه بسهولة لأنها تسمح لكبريائهم بالظهور. وبهذا يكونون قادرين على قبول المسؤولية التامة غير المنقسمة عن أفعالهم، جيدةً كانت أم سيئة، ليصبحوا بذلك مستقلين عن كل إرادةٍ أعلى تبحث عن تنظيم فعالياتها.

إن طريقة الصياغة المفاهيمية هذه للمسألة هي غير دينيةٍ بالمطلق. وأولئك الذين أعلنوا – سويةً مع القديس أوغسطين ولوثر- أن الحرية العشوائية تعني عمليا إنكار يسوع المسيح، هم مَن استوعب بعمقٍ جوهر الدِّين عموماً والمسيحية بشكلٍ خاص. ووفقاً لهم، كل أفعالنا محددةٌ سلفاً من الأعلى، وهي تركع بلا حول تحت ثقل النعمة الإلهية الرهيب.

لقد تأرجحت البشرية بين هذين التطرفين إلى اليوم. أما في أيامنا هذه، فإن نظرية الإرادة الحرة -أساس جدول القِيَم المعاصر- قد قُلِبَت بشكلٍ مُدَوٍّ عبر اكتشافات مثل أبحاث الوراثة، وتقييم أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية، والتحليل الأعمق للآلية الداخلية التي

تشكِّل الطبيعة البشرية. وعلى حد قول نيتشه: "تأتي إلى العالم من والدَين بددا قواهما الأخلاقية التي استثمر فيها أجيال عديدة. أنت حالة يتعذّر إصلاحها، الأمر الذي ينتهي بك إما إلى السِّجن أو إلى مستشفى المجانين. إن الانحطاط الأخلاقي هو نتيجة للانحطاط الجسدي. وإن كمية خبث الإنسان المولودة معه تتناسب طرداً مع مستوى مرضه؛ فالخبث ليس سبباً، بل نتيجة.

تتجوَّل الضرورة في كل الأرجاء، كلية الحضور، متلاعبةً بأقدار الإنسان بلا رحمة. ندعو هذه الضرورة عادةً بـ"إرادتنا الحرة". بالنسبة للبعض تبدو هذه الضرورة حتميةً لا مفر منها، متخذةً قناع رغباتهم. بالنسبة لآخرين تتخذ قناع أخلاقهم وامتثاليتهم، لأنَّ تركيباتهم مقولبة إلى حد ليس للرغبات طريقٌ إليها، وهي سهلة الامتثال للقيود الأخلاقية. وهناك مَن تتخذ الضرورة لديه قناع الحِس السليم والاستفهام العلمي، كما أن هناك مجموعة أُخرى من البشر تتخذ لديهم قناع الغرابة والطيش الفروسي.

على أية حال، يسعى كل الذين ذكرناهم لموضعة إرادتهم الحرة تماماً حيث تربطها الضرورة، وهذا الارتباط مستقلٌ تماماً عن إرادتهم. والأمر كما لو أنهم يدّعون أن اليرقة تحيك شرنقتها عبر ممارستها لإرادتها الحرة، أو أن الإرادة الحرة للنار هي ما يتسبب بالإحراق.

فإذا دلفنا بعمقٍ أكثر إلى هذا الوهم السَيكولوجي، سنكتشف النبع الأصلي الذي تُستقى منه فكرة الإرادة الحرة هذه. وفي اعتقادنا أن مَن روَّجَ لهذا الوهم ووضعه قيد الاستخدام كان الضعيف الذي استجداه كعزاء، والقوي الذي تلطّى خلفه ككبرياء. إنّ ما سمح لكذبة الإرادة الحرة هذه بالوجود كان اعتبار كل شخصٍ نفسه أكثر حريةً في كل ما يجعل غرائزه أقوى، ليغدو رضاه في تلك الحالات كلها أكثر سهولةً للتلبية والإشباع. هذه الغريزة هي الرغبة لدى البعض، والإحساس بالواجب والتعطّش للحقيقة لدى البعض الآخر، والنزوة والجاذبية لدى آخرين.

هكذا ظهر وهم الإرادة الحرة في العالم. وكما هو حال الاعتقاد بوجود الروح، تحوَّل مفهوم الإرادة الحرة هو الآخر إلى إضافة لا مجال للاستغناء عنها في ترسانة الإنسان العقلية. - وكما يمكن للمرء أن يتوقَّع بسهولة- مارس هذا المفهوم تأثيراً عميقاً على المؤسسات الاجتماعية. وكانت النتيجة المحتومة لهذا المنطق اعتبار الأخلاق والحق معتمدة بالكامل على اعتقاد الإرادة الحرة هذا. الأمر الذي أدى إلى تقييم قيمة الأفعال – التي كان معيار الحكم عليها لعشرة آلاف سنة كاملة هو نتائج الأفعال ذاتها- على أساس الأصل الذي نشأت منه. لم يتم هذا الانقلاب الرهيب إلا بعد صراعات طويلة وترددٍ أشد. لكن الواقع المؤسف لسوء الحظ يكمن في الخلط المستمر بين النبع الأصلي لفعل ما والنية المفترَضة الكامنة خلف هذا الفعل. فوفقاً

للاعتقاد السائد؛ النية هي ما يكشف أصل فعلٍ ما. واليوم وحسب حتى بدأنا نشكُّ بأن العنصر الأكثر أهمية والذي يسمح لنا بسبرِ أهمية فعلٍ ما من عدمها هو بالذات ما يكمن خفياً خلف تلك النية. شيءٌ ما غامضٌ ومستقلٌ عن الإرادة. والنية ليست بأكثر من عَرَضٍ يستدعي التبيُّنَ والتفسير، عرَض خلقته عوامل مجهولة. وهذا هو السبب في عدم عدالة الأخلاق الحالية وكل ذاك التضليل الكامن فيها، إذ هي ارتكزت على اعتقادٍ خاطئٍ يقول بالقدرة على الحكم على فعل ما استناداً إلى القناعات الكامنة خلفه. قناعات عصيّةٌ على كل معرفةٍ غالباً.

واليوم، وبعد أن تمكنا من فهم الآلية الكامنة خلف السوك بشكل أفضل، وبدأنا بتمييز الدوافع المحركة لسلوكياتنا، يعلو نداء الواجب لكل ضمير مستنير: البدء ببناء أخلاق جديدة والتبشير بها، أخلاقٌ هي ما بعد أخلاقنا الحديثة، وعلى أسسٍ جديدةٍ وأسمى وأكثر مصداقية وحقيقية.

على أية حال، وبغض النظر عن كل هذه الجلَبة حول إنشاء أخلاقٍ جديدة، يشكّل الاكتشاف العلمي الحديث لعدم المسؤولية الطبيعي المتأصل في الإنسان – عندما نتناول أصل الأفعال وتشريحها- اختباراً مرّاً لكل حكيم (لكل أولئك الذين يلتمسون – وعلى مسؤوليتهم الشخصية- شارة نبالة وكرامة البشرية). هذه هي التجربة الأكثر مرارةً، إذ سيكتشفون مدى خلو الأحكام والتفضيلات

والنفورات من كل قيمةٍ ووزن. هذا هو وقت استنتاج أنّ كل التعصبات المقدَّسة للشهيد والبطل مبنية على الزيف والأكاذيب. ولايمكن لأي أحد أن يصفِّق أو يعارِض بعد الآن أبداً، لأنه من السُّخف والمضحِكِ أن تُمدَحَ الضرورة والقوانين الطبيعية، أو تُهجى. والموقف ذاته الذي يبديه المرء نحو مظاهر الحياة النباتية (الموقف الموضوعي والحيادي) يجب أن يتخذه باتجاه أفعاله وأفعال الآخرين. إذ يمكن للمرء أن يُعجَبَ بقوة الأفعال البشرية والدافع التلقائي لها، ولكن ليس بالقيمة الأخلاقية. فكلُّ شيءٍ بريء. والحكمة هي الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى وعي ضرورةٍ وبراءةٍ كونية كهذه.

بشكلٍ مماثلٍ، تنهار القِيَم الرئيسة الثلاث – المدوَّنة في جدول قيم الوصايا العشر لأيامنا هذه- في ضوء أي تفحُّصٍ علمي للأشياء.

وجودَ هدفٍ في الطبيعة، وهو على علاقةٍ ما بالبشرية.

وجود روحٍ خالدة.

وجود إرادةٍ حُرة.

كيف يمكن لشخصٍ استندَ إلى وعودٍ هشَّةٍ ومُضلِّلة كهذه (وعودٍ فرضها جدول قيَمنا) ألا يسقط فريسةً للتشاؤمية والعدمية؟ كيف لأيٍّ كان أن يُحوِّلَ بصره عن الأطروحة التي يطرحها نيتشه على الإنسان المعاصر:

إمّا أن يُدَمِّرَ نفسه

أو أن يسحق جدول القيم المعاصر له؟

ج - عن المساواة البشرية:

وهنا نواجه قيمةً أُخرى من جدول قِيَمنا المعاصر، وفقاً لنيتشه. قيمة تؤدي بنا إلى العدمية التي يجب قذفها خارج ذاك الجدول بلا أية رحمة. ووفقاً لنيتشه ليس هنالك أكثر سمّيّةً من مبدأ المساواة. لقد عاف نيتشه داروين وسبنسر لأنهما قالا لنا بشكلٍ آمرٍ:

"انحنوا للخلف، تفاعلوا بقوة متناسبة مع القوى الخارجية، اختفوا في حال الضرورة كرمى لبيئتكم، ذوبوا في الكل".

وافترضوا من هذا المبدأ قانوناً اعتقدوا قدرته على شرح الوجود، بينما ليس هناك من قانون سوى قانون الهيمنة الذي ينتج من قانون عدم المساواة الطبيعي (القانون الذي يحثُّ كل كائنٍ حي على تجاوز الآخر وتخطيه). فالصراع ليس حول كيفية النجاة أو التكاثر، بل حول كيفية عيش أفضل حياةٍ ممكنة وأكثرها كثافةً واتساعاً. وكما هي الحال في الطبيعة كذلك هي في المجتمع: ليست الديموقراطية هي المثال الحق، بل الأرستقراطية. بل وليست حتى الأرستقراطية، بل هي الملكية والاستبداد.

"هناك مَن هم عبيدٌ بطبيعتهم - والكدحُ بالنسبة إليهم مفيدٌ وعادل- وهناك مَن هم أحرار". لقد هلَّل نيتشه لهذه الحكمة

الأرسطية، وبنى – كما سنرى في ما سيرد لاحقاً- كامل نظامه الفلسفي المتعلق بالحق والأخلاق والدولة عليها.

ليس للمساواة مكانٌ في الطبيعة. وهي مجرد مغالطة يستخدمها الضعيف لخداع القوي وإخضاعه. مَن اخترع المساواة هو الدِّين والفلسفة الأخلاقية. وكان الخياليون والعقائديون هم مَن بشروا بها، ليفرضها لاحقاً التصويت الشعبي، وتهددنا اليوم - عبر نذير الاشتراكية- بإفناء الحضارة وكل ما هو متفوِّق. "لا تخلطوا بيني وبين أيٍّ من مصفِّقي الاشتراكية هؤلاء" يزأر نيتشه، "لأنَّ العدالة تقتضي مني الاعتراف بأنّ /البشر ليسوا متساوين/". وحيث إنهم ليسوا كذلك، لا يجوز أن يكون لكل الأفراد حقوق متساوية، أو واجبات متساوية. إنّ تخصيص حقوق غير متساوية وواجبات غير متساوية لكائناتٍ غير متساوية هو العدالة المطلقة.

وفي الواقع، نرى اليوم متوسِّطي الإمكانات، الجماهير، "القطعان الحيوانية" تربض كلها سوية، كجسدٍ واحد، يحتشدون ويسحقون كل استثناءٍ شاهق. إنّ الحقوق المتساوية التي يطالبون بها ليست سوى مساواة في عدم العدالة. عدم عدالةٍ اقتُرِفت في هذا الكفاح الشامل ضد كل ما هو نادر ومتميِّز. ففي النهاية، بالكاد يمكن تضليل غريزة الجماهير، وسيكون أياً كان ما سيُحصل عليه أي شيء سوى

التميُّز والتفوق. تتحسّس الجماهير في الرجال العُظماء الخطر دوماً، وتشعر بأنهم نتاج المصادفة والحظ المؤذي، وهي ترى بأن طبائع كهذه لديها كل القدرة على قلب كل شيء عمل متوسّطو الإمكانات أجيالاً لبنائه.

بالتالي، وفي منتصف هذه الذهنية الديموقراطية المبتذلة، المسكون بفكرة المساواة الإنسانية، يبدو المثال الحقيقي للإنسان النبيل كامناً في فصل المرء نفسه عن القطيع، والإسراع إلى الاعتزال، الاختباء والعَيْش بعيداً عن كل خير وشر.

يفرض تحجيم الكائنات البشرية وتقزيمها علينا اليوم أعظم الأخطار جميعاً. ويستطيعُ هذا المشهد تفتيت الروح الإنسانية حتى التراب. سينتهي عصر كل ما هو استثنائي، سيتم تقزيم كل شيء، تقليصه، نزع مخالبه وأنيابه، وجعله متعقّلاً ضعيفاً، متوسِّطاً، وخالٍ من كل مبالاة في الحقيقة. لم يعد لدينا خوف من الطبيعة البشرية، لنتوقف بذلك عن الحب والأمل ملازمين لها. وإنَّ مجرد رؤية أي إنسان اليوم تتعبنا وتثبِّط همتنا. ماذا يمكن لكل هذا أن يكون سوى العدمية؟ وما الذي يمكن أن يكون منبعاً آخر للعدمية سوى هذه القيمة الزائفة (المساواة الإنسانية) المحفورة في جدول قيم أيامنا هذه؟

4 - العائلة:

طبائع الرجل والمرأة-الزواج:

لقد رأينا حتى الآن كيف تم تشويه الإنسان – ككينونةٍ فردية- عبر منحه من جدول القيَم المعاصر صفاتٍ لم تكن موجودةً فيه قبلاً. كما رأينا كيف دُفِعت البشرية نحو اليأس والعدمية نتيجةً لانكشاف كل أكاذيبها وتدميرها من قِبَل العِلم الحديث.

ولم يكن حال التشكيلات الاجتماعية الأوسع بأحسن حالاً من الإنسان الحديث من حيث التشويه الذي أُخضِع له في هذه المعمعة (مُغرَقاً أكثر فأكثر في بحر كل هذه الأكاذيب)، الأمر الذي تبدى جلياً في حال الأسرة (المؤسسة الاجتماعية الأساسية الأوسع من الفَرد).

فإذا بحثنا في سؤال الطبائع الحقيقية للرجل والمرأة والهدف من الزواج، ثمّ انتقلنا إلى أفكار المساواة والحقوق المتساوية (للنساء)، التي ينادي بها جدول القِيَم الديموقراطي اليوم ويشجع عليها، سنتمكن مباشرةً من تشخيص بذور الانحطاط والتشاؤمية التي نجدها في الأفراد (وفي العائلة أيضاً).

ما هي حقاً طبيعة الرجل والمرأة؟

يعتبر نيتشه عدم المساواة بين الرجل والمرأة قانوناً من قوانين الطبيعة، ينشأ من الاختلاف الفيزيولوجي والعقلي بين الجنسين:

الغريزة السائدة في الرجل هي الرغبة بالهيمنة، الحاجة إلى فرض أناه على أوسع رقعة تحيط به. هدفه هو شن حرب ضد قوى الطبيعة والإرادات التي تقف ضده. والإيروس ليس أكثر من حدث معزول في حياته، ومتى نذرَ حياته لامرأة، سيكون جباناً ومنحطاً ولن يستحق لقب رجُل.

وعلى العكس تماماً، يلعب الإيروس دوراً ذا أهمية عظيمة لدى المرأة، إذ يملأ حياتها بأكملها. بالنسبة إلى المرأة، يشكل الرجل والطفل نهاية الحياة، كما هو نهاية سعادتها وإجازتها الأبدية. كل ما في المرأة لغز. وحل هذا اللغز هو الحَمل. والرجل بالنسبة إلى المرأة هو الوسيلة لغاية هي التكاثر. ولكن ما هي المرأة بالنسبة إلى الرجل؟ "الرجل الحقيقي"، يقول نيتشه"، يرغب بشيئين: الخطر واللعب؛ وهذا هو سبب رغبته بالمرأة (اللعبة الأكثر خطورة). يجب على الرجل أن يتدرب من أجل الحرب: امرأة ليستريح فيها. سعادة الرجل تُدعى: "أنا أريد"، أما سعادة المرأة فهي "هو يريد".

هذه هي طبيعة الرجل والمرأة. وما الذي نواجهه اليوم؟ روح المساواة وغزو التحجيم لمذبح البيت والمرأة المقدس (التي أضَلَّتها مثُل رحم أيامنا هذه، وهي الآن تركض اليوم خلف حريّتها والحقوق المتساوية). وها نحن ذا اليوم نتعايش مع الأنماط الرهيبة للمرأة المهنية والذهنية.

"المرأة الذهنية هي إحدى أخطر التشويهات المؤسفة التي تعتري حضارة اليوم. هنالك ألف سبب للمرأة يدفعها للاختباء: سذاجتها، شدة حساسيتها، غرورها، تفاهتها، تكبرها. وقد دفعها خوفها من الرجل إلى كبح نفسها (حتى الآن). وا أسفاه، إذا حدث ونسيت النساء فن إثارة الاهتمام الثمين، إذا حدث ورَمَين قدرتهن الرشيقة على تلطيف الحياة بنعمتهنَّ ولطائفهن.

لمَ يجب أن تهتم النساء بالحقيقة (التي هي بحكم تعريفها ذاته: قبيحة)؟ إن أعظم فنّ وأعظم هبة أسبغتها الطبيعة عليها هو الكذب، وهذا هو الضبط ما نحبه في النساء".

بأسلوب يفيضُ بكل هذه الضراوة والقسوة يصبح نيتشه شاجباً المرأة الحديثة التي دخلت المعركة الاقتصادية الاجتماعية ضد الرجل. "المرأة" يرعد "تسقط فريسة الانحطاط. في كل مرة تربح الروح الصناعية معركةً ضد الأرستقراطية والعسكرية، تميل المرأة لاكتساب مزيد من الاستقلال المالي والقانوني، المقسوم للمرتزقة".

يتم في مجتمعاتنا هذه تصنيع "المرأة المأجورة /المرتزقة/". ومع ذلك، بقدر ما تنال هي امتيازات جديدة وحريات جديدة بفضل ذلك (رافعة إلى السماء راية التقدم)، فإنها تعيش في الواقع حالة تراجعٍ مستمر. فمنذ الثورة الفرنسية، تراجع تأثير المرأة بنسبة متناسبة تماماً مع حجم ادعاءاتها والحقوق التي اكتسبتها. وتحرر المرأة هو

العرَض الأشد خطورةً لانحراف الغرائز النسوية وتضاؤلها بوضوح. فأن تتجاهل – كامرأة- شحذ أسلحتك الحقيقية، أن تُعَطِّل بكل جنونٍ الفكرة التي ما فتئ الرجال يحملونها في أذهانهم حول المرأة كمخلوقٍ ضعيفٍ وبحاجة للرعاية والدعم والرِّقة والدلال كحالةٍ مثاليةٍ صوفية مختلفة عن المعيار الذكوري اختلافاً لا لبسَ فيه، أن تريد التخلص من مفهوم الأنوثة الغامضة الأزلية التي هي ما يجعل المرأة تفيض بكل تلك الجاذبية: ما الذي يمكن لهذا أن يعني إن لم يكن التشويه الكامل للغريزة الحقيقية؟

لقد انتفض نيتشه ضد كل أولئك المفكرين الذين يحرضون على صراع المرأة من أجل الانعتاق الاقتصادي والاجتماعي ويرفعون رايته. "ينسى الفلاسفة الحمقى ومخرِّبو النساء، أولئك الذين يريدون تحويل النساء إلى ملحدات وعالِمات، أي إلى مخلوقاتٍ ثائرةٍ وسخيفةٍ بلا نهاية، أن ما يُلهم احترام النساء (والخوف منهن أحياناً) هو طبيعتهن المتكيّفة الداهية، مخالب النمر المختبئة المتسللة في القدم المخملية، الأنا الساذجة، الحساسية المجنونة العنيدة، التقلُّب اللاعقلاني والعصيّ على التنبؤ في رغباتها وفضائلها". وهم يطلبون منها رمي كل هذه الأسلحة الخطرة المغوية، والخوض في حلبة الحياة الخالية من كل سحرٍ وسرٍّ شِعري. بكلمة واحدة: دخول المعركة منزوعة السلاح.

من الواضح مما سبق كم من الاحترام كان نيتشه يُكنُّه لمؤسسة الزواج. وفي رأيه كانت هذه الوسيلة الوحيدة الممكنة لبلوغ المثال الذي يجب على البشرية أن تسعى خلفه أبداً. مثالَ السعي الأبدي نحو تجاوز الذات، ففي الذرية تتكاثف كل آمال النوع. كلماتٍ شعِرية وحيوية تفيضُ حماساً مقدَّساً تتدفق من فَم نيتشه في كل مرة يتحدّث فيها عن الزواج والهدف الرائع منه:

"أريد أن أطرح عليكَ سؤالاً يا أخي، سؤالاً يسيلُ في روحك ككرة القياس، لتسبر عمقها. ما زلتَ شاباً، وما زلت تتوق للمرأة والأطفال. لكن سؤالي لك هو: هل أنت جديرٌ بكينونة الإنجاب؟ هل أنت من الفائزين، ممَّن تسيّدوا أنفسهم، ممّن تسيّدوا حواسّهم وفضائلهم؟ هذا ما أسألك إياه. أم أنّك مجرّد شخص يرغب، ورغبتك ليست سوى عويل الوحش والحاجة اليائسة، خوفُ الوحدة الموحِشة؟ أنا الذي يريد تخليد انتصارك وحريتك في نسلٍ منك وذريّة. فعبر الذرية سترفعُ نَصباً لانتصارك وانعتاقك. سترفعه عالياً شاهقاً فوق كل قامة لك سبَقت. قدرك ليس في دفعِ عرقك إلى الأمام فحسب، بل وإلى الأعلى أيضاً. ومن أجل ذلك قِف واحرِث حديقة الزواج المقدَّس. عطِشاً للخَلق، وكسهمٍ يشقُّ عباب السماء، كنبضٍ يتوق للتفوق، أخبرني أخي: ألا تريد زواجاً يوقِدُ كل ذاك؟ رغبةٌ مقدَّسةٌ كتلك وزواجٌ كذاك هو ما أرفع صوتي بالغناء لأجله".

نادراً ما نرى فلسفةً أو ديناً عبرت عن نفسها بكل ذاك الحماس والاحترام للزواج. ونرى نيتشه هنا– الفوضوي العاشق للفردية المبشِّر بها- يسمح باستثناءٍ وحيد لقانونه المقدَّس. وهذا هو سبب شجبه بضراوة شديدة للأفكار اللعوب – متبناةً على أساس المساواة التامة للجنسين- التي تحاول التقليل من شأن الزواج المقدَّس، وتحويله إلى وسيلة بسيطة لإشباعٍ حاجات بهيمية، أو لاتفاقٍ مربحٍ على أساس عقدٍ تجاري. "ما يُسمّيه العالَم زواجاً- واأسفاه- ما الذي يمكنني تسميته؟! أيّ إفقارٍ للروح في زوجين كهؤلاء؟! أيّ إفسادٍ للروح؟! أيُّ إذلالٍ للإنسان؟! ويدعونَ ذلك زواجاً؟! ويقولون إنّ زواجهم مكتوبٌ ومحفوظٌ في السماء؟! حسناً.. فلتنأى عني بلا نهايةٍ سماء الناس الزائدين أولئك!".

5- الدولة:

رأينا حتى الآن كيف بيَّن نيتشه أنَ الإنسان الحديث – ضمن أضيق محيطٍ لنشاطاته كفرد، والحدود الأوسع له كعائلة- يُقادُ بشكلٍ محتومٍ نحو العدمية، عبر إفساده بمفاهيم جدول قيم أيامه المعاصِرة. ولكن أليس من الصحيح أيضاً أنّ "الإنسان ككل" الإنسان كما نجده ضمن أوسع دائرةٍ لنشاطه، الإنسان ضمن الدولة، يتأثر بالمستوى ذاته من الكارثية بجدول القيَم المعاصر له؟

فلنتفحّص أصل الدولة وطبيعتها.

يرفض نيتشه المقولة الأرسطية التي تقول إنّه "مَن ليس اجتماعياً بالطبيعة أو بالمصادفة هو ليس بوحشٍ ولا إله". وعلى العكس، يؤكّد نيتشه أنّ الاجتماعية هي نقيض الطبيعة، لأنها تقوم بتقويض حرية التعبير الغنية لدى الإنسان وتقزيمها بلا نهاية. وهذا هو السبب في تنافر الأقوياء، وأنّه وإنْ حدث وتجاذبوا لا يفعلون ذلك إلا في مسعى تجسيد غريزة الهيمنة لديهم في الخارج وإشباعها عبر اضطهاد الضعيف. وعلى الرغم من ارتكاس وعيهم عند كل احتمال لقاء، يمكن للأقوياء الاجتماع سوية، تماماً كما عند اجتماع الطيور بهدف افتراس الضعيف، تنتصب في رعب وتحتشد كالقطيع خوفاً من فنائها في صراعٍ غير متكافئ.

بالتالي لدينا فريقان هما ولدا الضرورة: جماعة الوحوش الشقراء الكاسرة، وقطيع الضعفاء. وهذا كان سبب غرق القرون الأولى من التاريخ البشري في بحار من الدماء. إذ استمر الصراع الرهيب بين المجموعتين إلى أن خضع الضعيف للقوي. لا تسويات، ولا مواثيق. لمَ يجب على القوي التفكير بشروطٍ أو مساوَمات وهو قادرٌ على الفوز بأيٍّ كان على لائحة معركته بتلويحةٍ واحدة من يديه الرهيبتين؟ إنّ خضوع الضعيف للقوي هو قانون الطبيعة. والله يحكم ويوجّه وفقاً للقوانين التي سَنَّها، وهو هكذا يخلق الدولة ويعطي الحَقَّ – وهما ليسا سوى تعابير عظمته وإرادته- شكلاً.

هذا هو أصل الدولة. من الواضح أنْ لا علاقةَ للعدالة بما نعتقد عادةً بأنّه الأخلاق. بل إنّ نشوء الدولة دليلٌ لا لِبسَ فيه على لا أخلاقية البشر، ورَفعِ تلك اللا أخلاقية إلى مصافِ نظامٍ حقيقي صحيح. هنا نرى البشرية عاريةً من كل خوفٍ ولِجام، وتتبدى الطبيعة البشرية عاريةً وقد نزعَت عنها كل أقنعة الأخلاق الإيثارية، بكلِ جلاءٍ أمام أعيننا. كما نرى هنا الدولة وهي تقترف ما يفتقر الأفراد للشجاعة لاقترافه. وأيّاً ما كان المرء يتشهّى في أعمق رغباته لكنه لا يتجرأ على القيام به بسبب ضعفه أو خوفه أو إحساسه بالمسؤولية، تنفِّذه الدولة بكل جلاء، إذ إنها هي القوية، كما أنّ بإمكانها توزيع المسؤولية على عدد كبير من الأفراد إلى حدٍّ تتلاشى فيه وتختفي. لهذا السبب أرى أن دراسة أفعال الدوَل أمر في غاية التثقيف والأهمية: إذ تكشف دراسة كهذه لنا ما يمكن للبشر أن يُصبحوا عليه إذا ما تحلّوا بالجرأة اللازمة وحسب.

من ثُمَ نجدُ أنّ الأخلاق الإيثارية لا يمكنها أن توجَدَ إلا في الأفراد: هي أخلاقٌ مكتسَبة، ليست طبيعية، وأسسها ضحلةٌ هشة، تتجذَّر في الخوف أو الضعف أو الحساب. وبمقابَلتها مع أفعال الدوَل – التي تتمتّع بموقعٍ يسمح لها بتحقيق الطبيعة البشرية الحقيقية في البشر- نرى أنّ هذه الأخيرة تثبت كونها أنانية بلا هوادة ومتوحِّشَةً بلا رحمة، لا مساومات لديها عندما يأتي الأمر بها إلى أخلاقية الوسائل التي

تستخدمها عند التفاعل مع مواطنيها أو دوَلٍ أُخرى. إنّ الغاية الوحيدة لأيّة دولة هي وصولها إلى هدفها، والذي هو حصراً – دائماً وأبداً-: إشباع غريزتها الأساسية المحفِّزة لأية هويةٍ فرديةٍ عضوية "غريزة الهيمنة". إنّ كلماتٍ من مثل الفضيلة والأخلاق والعدالة هي بالنسبة للدولة مجرّد وسائلَ لحمايتها وتوسّعها. هكذا تكون الحياة الصحية الحيوية للدولة. إنّ حالة كهذه ليست منطقيّةً وطبيعية فحسب، بل وهي عادلةٌ أيضاً. فالتوسُّع والهيمنة هي الحاجات الأساسية لكل عضويّةٍ حيّة، وهي تُقادُ غريزياً باتجاه زيادة قوتها، وبالتالي ابتلاع كل القوى الأجنبية. من جهةٍ أُخرى تعطي الأخلاق الإنسان الحق بالدفاع، ولكن: أليس من المنطقي استناداً إلى الطَرحِ ذاته إدراك الحق بالاعتداء؟ هو حقٌّ لا غِنى عنه لكل متعضّيةٍ حيّة، ويتمتع بفائدةٍ عظيمة للمجتمع أيضاً من ناحيةٍ أُخرى: إذ يُدفَع المجتمع دفعاً لتقوية دفاعاته وتسليح ذاته والسعي نحو كمالها، حيث يستشعر في كل لحظةٍ الخطر الوشيك. "ليس فائدةً بالقليلة ولا متعةً بالهيّنة الإحساس بسيف ديموقليس معلّقاً فوق رأس المرء".

لا فرقَ بين ما إذا تُرِكَ حقُّ العدوان هذا للفرد أم لدولةٍ منكَبَّةٍ بهوَسٍ على التوسُّع. لقد سُمّيَ حق العقاب "حقّاً" بلا أية ضمانات: ففي النهاية، نحن ننال الحقوق فقط عبر عمليّةٍ مؤسسة بشكلٍ صحيح، ولا يمكن لعملية كهذه أن تحدث في هكذا حالة. استناداً على

هذا المنطق وهذه المقاربة، يمكن لأمّةٍ أن تمنح مصطلحَ "الحق" لأي إحساسٍ يدفعها للغزو والتوسُّع سواء كان بقوة الأسلحة أم التجارة أم الاستعمار. وهو سيكونُ في الواقع حقّاً بالنمو والبقاء: فالناس الذين يرفضون الحرب أو التوسُّع السلمي أو العدواني هم أناسٌ آخذون في صيرورة الانحدار وضياع الحيوية، أي أُناسٌ "ناضجون وجاهزون للديموقراطية وحكم التجار".

ما الذي يمكننا حقاً قوله أيضاً عن أكثر أمتين خلقتا الحضارة البشرية نبلاً؟ ماذا كانوا ليكونوا إن لم يكونوا كائناتٍ قوية تستخدم كأسلحةٍ وأدواتٍ للعدالة والظلم، الأخلاق واللاأخلاق، الصداقة أو الانتقام اللاإنساني. وكل ما سبق لهدفٍ واحدٍ وحسب: الحفاظ على أنفسهم والتوسُّع والانتشار عبر العالم كله؟

لقد كانت الديموقراطية الأثينية – على الرغم من اسمها- أرستقراطيةً أو أوليغارشية من حيث الجوهر، فعدة آلاف من المواطنين كانوا حكاماً لثلاثمئة ألف أجنبي وعبد. ولتُعامَل بجدّية واحترام يجب أن تكون مواطناً، وإلا لن يُعترَفُ بك بأي شكلٍ، وبالتالي لن تكون لك أية حقوق. لهذا لم يرَ الأثينيون أية حقوق للعبيد ولا للأجانب (المقيمين في أثينا وهم غرباء عنها) ولا للنساء.

كان اليونانيون القدماء عشاقاً مغرمين بالدولة. وقد انتقل عشقهم شبه الديني للملك – بعد حَلِّ الحكومة الملكية- وحوّلَ مكثَّفاً

إلى "المدينة". وقد كان هذا التكريس للمدينة مكثَّفاً – مقارنةً به نحو شخص- بحكم سهولة تحول الأفكار لمركز للشغف أكثر مما يمكن للأفراد أن يكونوه. كما أن الأفكار نادراً ما تسبب خيباتٍ لعشاقها كما هي حال الأفراد. ويضيف نيتشه بمسحةٍ سيكولوجية رهيفة: "كلما شعرَ الشخص بكونه محبوباً أكثر زادت قسوة رد فعله على العاشق، إلى أن يُصبح في النهاية غير جدير بهذا الحب ويحدث الفراق".

أما بالنسبة للإمبراطورية الرومانية، فنلاحظ "خلوداً" مشابهاً بل وحتى أكبر. فبأي طريقٍ آخر يمكن لعالم الإمبراطورية الهيمنة إنْ لم يكن بواسطة سلسلةٍ مستمرة من الجرائم والعنف والخيانة والوحشية؟ عِلماً أنَّ الدين الروماني ليس سوى أداة في يد الدولة. فالآلهة كانوا نوعاً من السيناتورات الفوق أرضية الذين يشرفون على نظرائهم الأرضيين. هم يشرفون على الدولة ويدافعون عنها ويعاقبون مَن فيها. وكثيراً ما يُعاقَبون هم أنفسهم من قبل الدولة، عندما لا يخدمون مصالح الدولة باجتهاد.

لا يمكن لحالة الدولة الهانئة والطبيعية هذه أن تدوم أمداً طويلاً. إذ تحتَ طبقة الأقوياء - التي تحكم وتصوغ شكل الدولة على صورتها- تحيا الجماهير المنتفخة أبداً والناهبة للثروة والسلطة أكثر فأكثر. كانت الجماهير في البدايات تشعر بقبضة الغزاة فوقها دوماً (عِرقاً أجنبياً ذا غرائز وحشية ومفترِسة، أو حتى أعضاء من العنصر العرقي

نفسه الذين- عبر الانتخاب والوراثة- نجحوا في تشكيل غرائز كتلك فيهم). بهذا كانت تبقى الجماهير صامتةً ومطيعة وتزوّد أسيادها بأكثر الأدوات فائدة وتكيُّفاً. إلا أنّه ومع مرور الزمن، تبدأ الحشود – بمكرٍ وتداول حكيمٍ للرأي وصبرٍ طويل- بالتقدم بثباتٍ وخِفية لتقوّضَ طبقة الأقوياء التي تعلوها. ثم بالاستيلاء على الخنادق التي سوّرَتها الطبقة الأعلى بها واحداً تلو الآخر. وهنا يقفز إلى ذاكرتنا أكمل نموذج للهيمنة التدريجية والاستراتيجية في صراعٍ محموم، ذاك الذي شنَّهُ العامةُ ضد النبلاء في روما القديمة.

وعبر استخدام وسائل مبتكرة – من المداهَمات والثورات إلى الخِداع والعنف الصريح- تمكنوا تدريجياً من التسلل إلى الإدارات والعائلات وطبقة النبلاء. لقد أثبتت الأخلاق وجودها كونها إحدى أكثر الأسلحة جدوى وفعالية، تعززها غريزة حفظ الذات والاستفادة من استدراج الأقوياء وإخضاعهم. وقد انقلبت قواعد الأخلاق، ومعها كل شيءٍ آخر سبق للغزاة أن اعتبروه عادلاً وخيّراً، وتمَّ إعلان قيَم معاكسة تماماً تصُبُّ في مصلحة الضعيف: قِيَم التسامح والتعاطف والتواضع والتوفير.

وشيئاً فشيئاً أخذت هذه الأخلاق – وهي مؤامرة أطلقتها غرائز الضعفاء ضد الأقوياء، مؤامرة أنانية بكل امتياز- تضرب جذورها في

الأرض وتخترق طبقة الأقوياء، التي تم نزع أسلحتها وتقويضها، ومن ثم يخرج الضعفاء بكل ذلك بنصرٍ صريح.

هكذا انهارت الدولة السليمة المفترِسة. ما الذي ساهم – أكثر من أي شيء آخر- بهذا التدمير الكارثي للدولة المعافاة القوية؟ لقد كان البشرُ الصغار الذين لا طعم لهم ولا رائحة أبناء العِرق الأجنبي، المقيمون في شريطٍ ناءٍ من الأرض العابدونَ لإلههم الخاص (إله شديد التكيُّف وكلي القدرة). لم يكُن أولئك الناس بشراً نبلاء –كاليونانيين والرومان- بل مجرد رعاع وحاملين لأخلاق مختلفة بالكامل عن أخلاق العقلية الرومانية اليونانية.

بالنسبة لأُناسٍ كأولئك لم يكن الانتهاك سلوكاً مؤذياً للمواطن أو الدولة، بل كان سلوكاً موَجَّهاً ضدَّ الله ذاته. إله لا علاقة له بالدولة، ولا يمكن غفران خطيئة كتلك إلا بالتوبة، وطلب السَّماح والمغفرة والسجود التائب أمام المقدَّس المُهين. وأمام إله كهذا – إله جبار كلّيّ القدرة- يتساوى الكلّ في عدميّته وصفريّته: القوي والضعيف، الغني والفقير، الجميل والقبيح. لقد انتشر هذا المنظور المتناقض الغريب للانتهاك عبر العالَم كلّه من خلال المسيحية، التي حاولت تهويد العالَم. ومن يومها وكلّ ترتيبٍ ذو معنى للقِيَم مقلوب بالكامل، وتمَّ رمي الدوَل والأفراد في حضن الفساد والانحلال.

لم تعد القوّة والجمال ودافع الغزو وغريزة الهيمنة على قائمة القِيَم، بل امتلأت تلك القائمة بالجبن والتواضع والطاعة والهرطقة والتنسُّك الزهدي. ولم تعد هنالك أية قيمة للفخامة، ولا للجسد القوي الجميل، ولا للذة الفانية الشهوانية، ولا للتجلي الأرستقراطي للحياة بكل نبضها وكثافتها. وإنما أخذ الفقر وضعف القدرة الأخلاقية ضيقة العقل والشك بكل جَمال والامتناع عن كل لذة، والرضا بحياةٍ هاربة وممتلكاتٍ مادية، بالوصول إلى السيادة. ونُقِلَت الرغبات والقدرات كلها إلى الأعلى، إلى حياةٍ هي خلف القبر.

لقد أُزيح مركز الجاذبية البشرية من هذه الأرض في الأسفل إلى السماء في الأعلى.

لم يسبق قبلاً في التاريخ البشري لإعادة ترتيبٍ وتقييمٍ للقِيَم أن حدثت بهذه الطريقة.

انهار مفهوم الدولة الروماني واليوناني تماماً. وقامت المسيحية بلجم المنتصرين البرابرة ثم القضاء عليهم، وذلك عبر دسّ السُّم في الدَّم النظيف. "لا أعرف أي شيء عما حدث في حدائق الحيوان، ولكنني أظن أن هناك عملية تحسينٍ للوحوش. لقد أُضعِفَت وتم تشذيب كل خطورةٍ كامنةٍ فيها عبر ترهيبها وتعميق جراحها. وهكذا أُمرِضَت الوحوش. ووفقاً لنيتشه الأمر ذاته حدث لـ"الوحش الأشقر"، المفترِس، الذي حولته المسيحية إلى حيوانٍ أليف مطيع عديم الأذى.

كان مبدأ المساواة أحد أخطر عواقب هذا المفهوم اليهودي للمجتمع والدولة. فبحكم تساوي الكل أمام الله، استنتجوا واجب مساواة الكل أمام القانون أيضاً. وهو المفهوم المدمِّر الذي اعتنقته الثورة الفرنسية، التي تمثَّل هدفها في تحقيق المساواة والتفوق القومي. ولكن: ما الذي كان لهذه الأهداف أن تلتمس أكثر من حكم رعاع حقودين متوحشين؟ إن المساواة تقضي على كل حرية، والتفوق القومي يقضي بدوره على المساواة ذاتها. لأنه ما الذي سيحدث إذا كان ما صوتت عليه الأغلبية هو القانون، وإذا كان قانون الأغلبية هو ما يحكم؟ لن يتم مراعاة أي اعتبارٍ للأرستقراطيين – وهم البارعون بحكم طبيعة شخصياتهم وتعليمهم المتفوق-، وسيُسحقون ويضيع صوتهم بالكامل في ضجة الحشود والعامّة.

وهذا كان تماماً ما حاولت الثورة الفرنسية تحقيقه: إنه حكم الأغلبية، حكم الرعاع. لقد سلّمَت عصا الراعي إلى القطيع. إنّ حكم الأغلبية – هذا السلاح الرهيب في يد الجماهير- هو خلطٌ مجرمٌ شريرٌ بين الكَمّ والنوع. هل يجب عدُّ الأصوات أم وَزنها؟ الجواب أسهل من السهولة ذاتها: هناك الآلاف من الجنود، ولكن ليس هناك إلا جنرال واحد. لكنّ دولة الدهماء الجديدة هذه تقول إن على الجنرال أن يُطيع الجنود، أو لا يُسمح لأي جنرال بالوجود إطلاقاً.

كانت هذه هي الأفخاخ التي نصبها الرعاع، والتي تمكنوا بواسطتها من القضاء على الدولة الأصلية القوية وعلى طبقة الأقوياء المتفوقة. وقد انهارت هذه الطبقة والدولة بعد الحط من قدرها وإخضاعها وصعقها بتحايل الرعاع والدهماء وغرقها في أفخاخهم. ومعهما اندثرت الحضارة. إذ كلما طال حكم الرعاع، ازدادت هيمنتها وطغيانها على خيّاطي التقدم الاستثنائيين، أمثلة الذكاء الإنساني التي حطَّ الرعاع من أخلاقها وقادوها إلى التشاؤمية والعدمية.

وما يزيد من خيبة الأمل أكثر هو أن تقدم الضعفاء والمهزومين هذا أخذ شكلاً كلياً وأبدياً. واتضحت ملامحه بعد تفحُّص مراحله المختلفة عبر العصور:

المرحلة الأولى:

ينادي الضعفاء بالمساواة الإنسانية. داخل وعيهم في البداية، ثم عبر العالم كله لاحقاً.

يبدؤون بنشر الصراع باحثين عن اعتراف، ومنادين بالعدالة وحقوق المساواة.

ينالون الاعتراف. وكما هي الحال دوماً: يقودهم الانتصار الأول إلى الجنون والسُعار، فيكشفون عن المزيد مما خبؤوه من مطالب؛ فهم يريدون مزيداً من الامتيازات، الأمر الذي يؤدي إلى مزيدٍ من المكاسب من الطبقة المتفوقة.

تتحرك في داخلهم الرغبة بالسلطة لهم وحدهم، فيسحقون أي أحد آخر.

يمتلكون السُلطة، أو يُصبحون على طريق امتلاكها على الأقل.

بكلمات أُخرى، يسحب تيار الدهماء الدولة ويُغرقها، كاشفاً في طريقه عن مزيد من أعراض الانحطاط الأشد خطورةً وعدمية: هدف دولة اليوم احتواء أكبر عدد من البشر وتقديم أقصى رفاهيةٍ ممكنة لهم، رفاهية هي أكثر أمناً وعدميةً قدر الإمكان.

إن الدولة الحديثة مثلها مثل مهندسٍ انهمك ببناء مَشفى: قام بحساب عدد الأمتار المكعبة الضرورية لتهويةٍ كافية بدقةٍ رياضية، وقال: "إذا اقتطعت خمسة ميليمتراتٍ أُخرى من كلٍّ منها سأُصبح قادراً على امتلاك أربعة أو خمسة أسِرَّةٍ إضافية".

"يصلُ إلى هذا العالم عدد من البشر أكثر مما يلزم" يصيح نيتشه ناقماً بلا نهاية على ذهنية الدولة الحديثة. "لقد ابتُكرت هذه الدولة لصالح الزائدين؛ انظُر كيف تجذبهم، كل هؤلاء الزائدين! كيف تحتويهم! كيف تمضغهم وتبصقهم! إلى أين يمضي هذا المجتمع الحديث؟ العدالة والمساواة. ما الذي تعنيه بكلمة: مساواة؟ الانتقاء من كل واحد متفوّقٍ علينا وإبادته. وبالمساواة يعنون فضيلةً تحثّنا على رفع أصواتنا في وجه كل قوي".

ومن ضجيج الرعاع الصاخب المسعور ينتصبُ وَثَنٌ جديد: الدولة الديموقراطية. حيث يُجبر البشر على عبادته، وعلى إعلانه ملكاً متوَّجاً من الشعب (بكل زيفٍ وحقارة). "إن دولةً كهذه لهيَ أفظعُ الهَولات، إنها تكذبُ بلا أي حياء، وها هي واحدةٌ من أغرب كذباتها: أنا الدولة أنا الشعب! أية كذبة كمثل هذه؟! إنّ مَن شكّلَ البشر هم الخالقون، وهم مَن رفعَ فوق رؤوسهم الإيمان والحب. ولكن– من جهةٍ أُخرى- أولئك هم المدمرون، الذين نصبوا كل نوعٍ من الأفخاخ ثم أسمَوها: دولة. هم يرفعون السيف بإحدى اليدين وباليد الأُخرى يومون بألف جزرة".

هذه هي الدولة الحديثة بعد أن أقنعت الناس بأنها تصدُر عنهم وتمثّلهم. وضمن هذا السياق، تغازل هذه الدولة أشد الغرائز قرفاً وتدفع الناس إلى الهاوية والانحطاط بدلاً من حثهم على الارتقاء للأعلى ونحو ما هو أكثر نبلاً وعظمة. ولتحريض كل تعصب وعبادة ضيقة لديهم تستمر الدولة بالنَفخِ مسعورةً: "ليس هناك مَن هو أعلى مني على هذه الأرض. أنا يدُ الله!".

كيف للإنسانية أن تجتمع تحت راية دولةٍ بكل هذه الوضاعة والديموقراطية؟

"أمشي بين كل هؤلاء الناس وعيناي مفتوحتان. الناس في تضاؤلٍ مستمر ويتقلّصون أكثر فأكثر؛ مستديرين، مطيعين للقانون، يسهل

الحديث معهم، ومثل حبات الرمل يتكدسون الواحد قرب الآخر. وبكل تواضُعٍ واقتصاد يلتمسون سعادةً بالكاد تُلمَس، بينما عينهم الأُخرى تميلُ باحثةً عن سعادةٍ من نوع آخر".

لقد غدا تشويه الطبيعة وهدف الدولة – مع كل ما سبق من العوامل الأُخرى- أحد مصادر العدمية المعاصرة. "يمكنك اكتشاف الدولة في كل مكان يشرب فيه الجيد والسيّئ السُم ويهلكون. يمكنك اكتشاف الدولة في أية بُقعةٍ يُدعى الانتحار فيها حياةً".

الفصل الرابع

الدِّين، الأخلاق، الحَق

لقد بيّنا حتى هذه اللحظة كم أثّرَ جدول القِيَم الحديث على الطبيعة البشرية والعائلة والدولة، هذه التجليات الجوهرية الثلاثة للطاقة الإنسانية وحالة الاجتماع. بدورها قامت هذه المؤسسات بنقل المرَض الذي يلتهم البشر اليوم ويدفعها نحو الانتحار والعدمية، ونشره في كل مكان.

ولكن ماذا عن المفاهيم الثلاثة الرئيسة التي تحكم الحياة الداخلية والعامة للكائنات البشرية والعائلة والدولة. أي: الدِّين والأخلاق والحَق؟ ما مدى شدة كارثية تأثّر هذه المفاهيم بجدول القِيَم المعاصر؟ وإلى أي مدى بإمكانها موازنة التأثير الضار الذي سببته هذه القِيَم؟ وهل وصل الأمر بها إلى التسمم الكلي، وغدت هي بدورها إحدى العوامل المُنهِكة المدمِّرة للحياة؟ وهل من الممكن أن هذه القِيَم الثلاث لوصايا أيامنا هذه العشرة هي أيضاً مجرّد أعراض للانحطاط، وابتكار من هرطقات الضعفاء والمهزومين؟

أ- الدِّين:

إنّ الدِّين الذي تشرَّب في فجر البشرية كل مظهرٍ للحق هو من خلق الضعفاء والخائفين. وهو الشاهد على الحاجة البشرية للاستناد إلى بدايةٍ وهدف، إلى أي حلٍّ لقهر الروح.

إذ طالما كان البشر أقوياء لن يكون هناك إحساس بالحاجة لسَنَدٍ كهذا: لقد بُرِّرت الإرادة كقوة طبيعية، ووُجِّهَت بالتالي مباشرةً نحو الهدف. وعندما تعبت هذه الإرادة، وتضاءلت الشجاعة بحكم الأخطار والمقاومة التي تواجهها من الطبيعة الخارجية، التمس الإنسان العزاء والملجأ، ووجدهما في الدِّين: فآمن بأنه يستطيع تكييف كل تلك القوى القوية المعادية التي أحاطت به وسحقته، والتصالح معا ودفعها لتكون عوناً له عبر الصلوات والأشعار الطقسية والتضحيات النذرية بلذته وقوته.

هكذا خلق الخوف والعجز الدِّين. ولكن كان للحظات القوة البشرية أيضاً دورها في هذا الخلق. إذ كان المعتاد في الظرف البشري في تلك الأيام هو الصراع اليائس ضد قوى الطبيعة الذي بقيت البشرية فيه في موقع الهزيمة لزمنٍ طويل. لهذا لم يتجرأ البشر – بعدما تمكنوا من إحراز نصرٍ من نوعٍ ما- على نسب هذه الصفة إلى أنفسهم. بل عَزَوها إلى قوّةٍ داخلية، قوة أكثر قدرة مما كانوا هم عليه: قوة

إلهية. وهكذا تم تقليص الكائن البشري وتقييد ثقته بقواه الخاصة، فانقسمَ إلى كيانين منفصلَين: واحدٌ ضعيف هش يستحق الشفقة وحسب، بحاجة للحماية دوماً، اتُّفِقَ على تسميته "إنساناً"، وآخر هائل القوة وغامض، موجود خارجه، واتُّفِقَ على تسميته "الله".

سرعان ما وجد هذا الوضع منظِّمين ومبدعين له منحوا غرائز الضعف والخوف فيه (الموجودة فيه على شكل قواعد وعقائد وطقوس) جسماً وتعبيراً. ليتم تغليف تلك الغرائز بهيبةٍ واحترامٍ لا مناحة منهما لجعل أي نظام محسوساً.

لتُرفع مع ذلك غرائز الضعيف إلى مستوى أعلى من مستوى الحياة الدنيوية، ويؤلَّه لاحقاً بعد تغليفه بمجد المقدَّس وفوق الخارق للطبيعة. من ثمَّ، خلق كل شعبٍ آلهته على صورته وذائقته، مجبراً إياهم على اتباع أهوائه وتطوره. وعندما نتفحّص أديان الشعوب، يمكننا حقاً تحديد وتوثيق قوتها وعمق حياتها عبر مراحل تاريخها المتنوعة.

فلنأخذ الشعب اليهودي كمثال؛ حيث كان لديهم إله قويٌّ طيلة الوقت الذي كانوا فيه أقوياء: إله متعصب كاره لكل غير اليهود. وعندما بدأ الشعب اليهودي بالسقوط مقترباً من الفناء، وبعد إخضاعٍ اضطهادي شكل في وعيه قيماً جديدة، تحوَّل إيمانه في

المستقبل وبكل أملٍ بالتحرر بشكلٍ ملحوظ. كان ذلك قبل أن يُمثِّل الإله العبري قوة الشعب: الجشع ومحرِّك شعب حيوي قوي. أما الآن فقد أصبح الله متواضعاً جباناً لا حرب في نصائحه ولا غزو للشعوب الأُخرى. بل صفاء للروح وتواضع وتقوى وحب للصديق والعدو. لقد حوّلَ الله العبري إلى حالة عالمية. إلا أنّ المأساة تكمن في عدم وجود خيارٍ أو مَنفَذٍ آخر للآلهة: إما أن تكون قويةً مجسدةً لروح الغزو، وبالتالي آلهةً لشعب معيَّنٍ وحسب، أو أن تكون ضعيفةً وفي طور انحطاط، وحينها ستصبح آلهةً للإحسان وللعالم كله. الدخلاء يصبحون "الأمم"، ويهوه يصبح عيسى المسيح.

وهو تطورٌ طبيعي تماماً. فمولودةً في زمن انحطاط الإمبراطورية الرومانية وخضوع الشعب اليهودي بشكلٍ تام، وجدت المسيحية تربةً أكثر من خصبة للازدهار والانتشار بين طبقات مجتمعٍ مُسِنٍّ سيئ الحظ، وبين الصعاليك الفقراء والعبيد وغير المتعلمين والمنبوذين. لقد مجدت المسيحية الصفات وسعّرَت غرائز تلك الطبقات: التواضع والفقر والقبح والصبر. وانتقدت الدولة والوطن. "إذا كنت مسيحياً - يصيح يوحنا فم الذهب مخاطباً أهل أنطاكيا- لن تكون لك مدينة على الأرض، فمقامنا في السماء، وهناك أرض حقوقنا السياسية". ويتابع محرّماً اليمين (القَسَم) والخدمة العسكرية والمشاركة في أية احتفالات يهودية وممارسة المرء حقه الشخصي في

الدفاع عن النفس. ويمحو كل تمييز بين المواطنين والأجانب، كما يدين المجتمع وهو يمدح التنسُّك والعذرية. ويُقحم الإحساس بالتخمة والاشمئزاز في هذا العالم - وادي الدموع-، ويطيح بكل قوة الرغبة البشرية متجهاً نحو حياةٍ بعد الموت. من الطبيعي لأية تعاليم تستدعي "حياةً بعد الموت" أن تشجب هذه الحياة الأرضية وتفرض على أنصارها إما مغادرتها بإرادتهم أو على الأقل التوق لخروج سريع منها. من هنا يأتي كره المسيحية لهذا العالم، وإدانتها للرغبات البشرية، وخوفها من الجمال واللذة، لتصل إلى اشتهاء شديد للعدم وتوقٍ رهيب للراحة في الموت.

وما تزال هذه المسيحية على الرغم من كل عواقبها الكارثية سائدةً، وذلك على الرغم من كل الاحتجاجات من قبل أولئك الذين يدّعون تخلّصهم من الكذبة الدينية. إذ ما هو المثال الديموقراطي للدولة الحديثة إن لم يكن النتيجة الطبيعية للمثال المسيحي؟ ففي كلاهما نجد كراهية الضعيف للقوي نفسها، والميل نفسه لرفع الضعيف والأصول الوضيعة ووضعها في مصافي النبلاء، والترويج نفسه للإحسان والصدقة، وعقيدة المساواة الإنسانية نفسها.

وماذا تكون كل هذه الميول والمثاليات الذليلة غير أعراض لانحطاط اجتماعي بيّن، ونقصٍ في الشجاعة وتهيُّبٍ للألم والمشاق الجسدية والأخلاقية، وخطر مميت؟

وما الفكرة الأُخرى التي ساهمت أكثر في الحفاظ على مرض البشرية الحديث هذا وانتشاره غير المسيحية، التي نفثت سمّ عدميتها حتى في النظريات المعارضة لها على طول الخط؟

ب - الأخلاق:

لطالما تلعثم حتى الفلاسفة الأكثر جرأةً أمام مشكلة الخير والشر.

وقد اعتبر كانط الضرورة المطلقة غير قابلة للمناقشة. "تصرّف كما لو أن سلوكك هو قانون كوني (إذا أمكن)". وقد قبل شوبنهاور نفسه – على الرغم من انتقاده لأخلاق الواجب الكانطية- الضرورة العملية لتصرّف كل شخص وفقاً للمبدأ البديهي: "لا تؤذِ أحداً، وساعد الآخرين بقدر ما تستطيع".

غير راضٍ عن هذه التوكيدات الجازمة ذات الفائدة العملية، حاول نيتشه النفاذ إلى جوهر لغز الأخلاق: ما هو أصل الأخلاق؟ وما هي الفائدة الحقيقية منها وما هي حقيقتها الأعمق؟ وهل تساهم الأخلاق في الحياة بأي شكل من الأشكال، أو أنها – مثل الدِّين- عرضٌ لضعفٍ وانحطاط؟

دعونا نتفحَّص أولاً أصل الأخلاق. كانت الوحشية في عصر المجتمع البربري – الذي كان في حالة حرب دائمة- إحدى الملذات الأسمى، وكان المحتوم نسبَ البشر لآلهتهم صفاتهم الخاصة مرفوعة إلى أعلى مستوى لها، باعتبار أن الآلهة مخلوقة على صورة البشر

وشبههم. بالتالي كانت الآلهة تُسَرُّ أيما سرور عند رؤية البشر يعانون، وكانت رؤية سعادة البشر تحزنهم كما لو كانت إهانةً ضد جنسهم الإلهي. فنتج عن ذلك أنّ مَن يجب عليه تعذيب الآخرين المشابهين له لإرضاء نفسه، كان عليه تعذيب نفسه لإرضاء آلهته (وخصوصاً عند إحساسه بالسعادة الغامرة).

هكذا أصبح تعليق السعادة والتقليل منها والحرب ضد اللذة واجباً، كما اعتُبِرت المعاناة الطوعية عَرضاً للشفقة.

وكان هذا أول تجلٍّ للأخلاق؛ نحن نفعل ما يسرُّ الله بكبح رغباتنا، وممارسة الزهد نحو كل المسرات التي قد تصادفنا. إذ يكافح الإنسان ضد نفسه، مقدّماً بذلك جوهر الأخلاق. ومنذ ذلك اليوم أُدخِلَت فكرة أن الفضيلة تكمن في المعاناة والحرمان، في تعليق الإرادة البشرية، وتم تجذيرها بعمق.

وهكذا يقاتل المرء ضدّ أكثر الغرائز أساسيةً لديه؛ كُرمى لإرضاء الآلهة الشريرة والمزيفة في البدء، ثم لإله واحد هو متسامحٌ محب في لحظة ومشهور بقسوته في لحظةٍ أُخرى، لا يريد منا تعذيب أنفسنا أو الموت، لكنه لا يسمح لنا بإشباع غرائزنا في الوقت ذاته (إذ لا بد أنَّ هذا سيعادل التخلي عنه وتركه للنسيان).

وأخيراً، وبالنظر إلى كل أولئك الذين اعتقدوا أنهم قد خلّصوا أنفسهم من فكرة الله الذي يملي عليهم قواعد الأخلاق: يجب أن

يتذكروا أن هناك إلهاً آخر، إلهٌ صارمٌ وعنيد يُسمونه "الضمير". وهو مَن يأمرهم بواجبات مطلقة تماماً كما يفعل الإله الأول الذي تخلّوا عنه.

سنوات عديدة مضت على رحيل بوذا، وما زال البشر يشهدون ظلّه متجوِّلاً في بعض الكهوف. إن ظلَّ الله الميت هذا هو "الضمير".

ليس الضمير شيئاً واحداً ثابتاً ومقدَّساً؛ بل هو متغيِّرٌ متعدد باختلاف الأمم والعصور، ويختلف من شخصٍ إلى آخر ضمن الأمة نفسها أو الحِقبة نفسها. والضمير هو أيضاً شيءٌ يعتمد على ظروفٍ عديدة لا علاقة لإرادتنا بها. بالتالي هو مستقلٌ عن حسناتنا وعيوبنا. وسواء قالوا بكونه موروثاً أو مكتَسباً، مادّياً أو نتاج البيئة والمصادَفات الثقافية، تبقى الظروف التي تحدد ضميرنا غامضةً وتعمل بشكل مستقل عنا، إلا أن العوامل الكامنة خلف أفعالنا وسلوكياتنا هي مع ذلك – وفي الوقت ذاته - عوامل هائلة القدرة والتأثير. هكذا يمكن نفي أساس الأخلاق (الذي وحده مَن يُمكِّن الأخلاق من الحفاظ على المكافآت والعقوبات).

بهذا نثبت أن الأخلاق ليست أخلاقيةً ولا عادلة، إذ إنها استمدَّت جذرها من عدم فهم، ومن اعتماد على مفهوم غير منصف. ولكن: هل يمكن لأخلاق كهذه – كما ندركها اليوم- على الأقل أن تكون مفيدة؟ وفقاً لنيتشه إن الأخلاق الحديثة هذه مضعِفةٌ ومهينة للإنسانية. فهي

توصي: "ضحِّ بنفسك من أجل مَن يشبهونك"، الأمر الذي يشبه الانتحار. فهو يجفف ينابيع الحيوية البشرية، نبع الرغبات والشغف والأنانية البشرية. مُنهكةً وموهنة إلى كل هذا الحد، تُقدِّم الأخلاق البشرية الحديثة باعتبارها المثال البشري الأعلى.

تنادي الأخلاق فينا: "الرذيلة والبلادة تُدَمِّران الأُمة". ليُعلن المنطق الحقيقي لإنسان منعتق - على الرغم منها: "عند دمار أمّة، لن تكون البلادة والرذيلة (مثل الحاجة لمحفِّزات قوية ستسعى خلفها الكائنات الضعيفة بلا نهاية) سوى العواقب المنطقية لكل ما حدث". وتخبرنا للصُحُف: "لقد دُمِّرَ هذا الحزب السياسي أو ذاك بسبب هذا الخطأ أو ذاك". مع ذلك يخبرنا المنطق السليم: إنَّ حزباً سياسياً يرتكب هذا الخطأ أو ذاك هو حزبٌ يسير نحو حتفه سلفاً. لكن الخطأ هو نتيجة وليس سبب الانحطاط.

ووفقاً لنيتشه، يمكن تلخيص العواقب الكارثية للأخلاق – وخصوصاً المسيحية منها- فيما يأتي:

لقد لوَّثَت المعاناة والألم، ومزجتهما بمفهوم الخطيئة، سالبةً بذلك للألم براءته.

لقد وصمت كل أحاسيس اللذة والفرح بالعار (بما فيها الشغف الشبقي، الإحساس بالنصر، الفخر والغرور)، وذلك عبر تشخيصها كإغواءات وخطايا.

أسبغت أكثر الأسماء تقديساً على أشد العواطف غير جدارة: الضعف، التواضع، والحشمة.

دسَّت تأويلاً مزيَّفاً لكل شيء عظيم في الطبيعة البشرية، وأجبرت الإنسان على التبرؤ من أشد ميزاته رجوليةً وذكورية. وحدها الثروة (غِنى شخصية المرء المتدفقة)، فيض الذات، حيوية الغرائز المتفتحة، والثقة المفرطة بالذات، هي مَن يمكنه إثبات القدرة على القيام بالتضحيات كرمى للآخرين، ولرفع المرء إلى مستوى الحب العظيم. يجب أن نتمتع بالاحترام لأنفسنا أولاً، ومن ذاك تأتي الفضائل كلها تلقائياً.

لوّثت رغبة الرجل بالمرأة.

أعلنت أن الحياة ما هي إلا خدمة جزائية، وأن السعادة إغواء، وأن ثقة الإنسان بقدراته عقوق وعدم تقوى.

وعلى امتداد طيف الأخلاق المسيحية اليهودية كله – الذي قضى على قِيَم الأسلاف جميعاً- يمكن للمرء أن يرى الضعيف والجماهير يقتلعون الأسوار والحواجز مهاجمين كل تطور حر للشخصيات القوية وفارضين غرائزهم الجبانة التافهة مُثُلاً.

ج- الحق:

مع تغيُّر مفاهيم الله والروح وحرية الإرادة والواجب والأخلاق العتيقة تغير معنى مفهوم الحق بدوره.

ولم تعد النظريات الفلسفية والميتافيزيقية القديمة كافية.

فقد أدخلت العلوم المادية الحديثة نماذج جديدة للتحقق وتحليل الأشياء والأفكار، نماذج مستندة إلى الحقائق والملاحظة الدقيقة والطريقة التحليلية. وغدا مفهوم الحق اليوم مقبولاً كأحد مظاهر الحياة الاجتماعية، ومرتبطاً بالقوانين الطبيعية التي تحكم الكون الطبيعي، كما هو يرتبط بالقوانين التي تحدد التطور الفكري والثقافي لأمةٍ ما أو حِقبةٍ ما.

بالتالي نحن ندرِك أن الطريقة التي يَعي البشر عبرها فكرة الحق تنتج – بشكلٍ مباشر وعميق- عن طبيعتها وتاريخها وتقاليدها ومُثُلها. فنجد توماس هوبز في إنكلترا ينسب الحق إلى القوة المصلحة، بينما ينسبها جون لوك إلى المصلحة والحرية: فهذا ميلٌ واقعي مرتكزٌ على المصلحة والحرية (سمتين مميزتين للعِرق الإنكليزي). وفي الطرف المقابل - فرنسا- حيث نجد ميلاً نحو مثالٍ تعبر عنه شعارات الثورة الفرنسية الثلاثة: حرية، إخاء ومساواة. أما في ألمانيا فيُبَيّن تطور مفهوم الحق بمهارة- وخلال سنوات قليلة- العلاقة المباشرة بين ظروف البشر الاقتصادية والاجتماعية من جهة، وبين أفكارهم عن الحق من جهةٍ أُخرى. وقبل الوحدة والتصاعد الخارق للروح الاقتصادية والعسكرية في ألمانيا، أسس الفلاسفة الألمان – محرِّكين بمفاهيم ميتافيزيقية- الحق على الحرية الأخلاقية، وعلى ما هو مميز في الطبيعة البشرية، وعلى فكرة الحق الفطري. وقد نُظِر إلى الوجه

المادي للحق – على ما يبدو- كمجرّد أداة يقع وجودها خارج جوهر الحق. ويمكن تلخيص منظور هيغل – الذي مثّل طريقة تفكير أمة بأكملها- للموضوع بما يأتي:" الأفعال الصحيحة هي الأفعال التي تعمل متناغمةً مع طاقة الأمة، أما الأفعال الظالمة فهي الأفعال التي تمضي في اتجاه معاكس لها. فالأولى تنجح، والثانية تُخفق. والنجاح هو التحقق المادي الضروري لفكرة الحق".

وهاكم ما يقوله دوهرينغ في الأمر: "هدف الحق هو السلام، والأدوات المستخدَمة للوصول إلى ذاك الهدف هي الصراع والحرب والجبروت. إن الصراع ملازم للتاريخ البشري. ومن ثم فهو غير غريب عن الحق، بل على العكس مرتبطٌ بجوهر الحق ارتباطاً لا انفصام فيه. فهو المكوّن الحقيقي للحق. لقد أُخضِعت كل الحقوق في العالم بواسطة الصراع، لأن فكرة الحق ليست سوى المعنى الأنقى للجبروت".

لم يتمكن نيتشه من تفادي تأثيرات بيئته (ولم يكن هذا ممكناً حتى في الأصل). وكابنٍ أصيلٍ لأمّةٍ في أقصى حيوية لها، طرحَ أفكاره التي ملأت الجوَّ المحيط به، معلِناً الحق بتضافرٍ لا ينفصم مع الجبروت. وباعتبار أن المفهومين كلهما كانا مميَّزين، تمَّ عزو حقوق متساوية ومنفصلة للأقوياء والضعفاء على السواء، فكان هذا دلالةً بينة على تدهور المجتمع وانحطاطه.

وكما سبق ورأينا: تعتدي الأعراق المهيمنة على الأعراق الأكثر مسالَمةً وضعفاً، وتخضعها. وليست هناك من قواعد للعدالة في العلاقة بين القوي والضعيف. والقوي هو خالق جداول القيم المختلفة، وهو مَن يعلن ما هو أخلاقي وخيِّر وعادل أياً كان ما يناسبه ويحرِّض اهتماماته. أما اللاأخلاقي وغير العادل فهو أي شيء غير متوافق مع طبيعته وشخصيته.

من جهةٍ أخرى يُشكِّل المحكومون – خفيةً وبصمت في البداية، ثم بجرأة ونجاح أكبر لاحقاً- جدول قيم مختلف: يميز بوضوح بين الصح والخطأ، الأمر المناقض على طول الخط لجدول قيم القوي. التعاطف الرحيم، الإحسان، الاعتدال، الصبر، الطيبة، والتواضع - والتي هي في نظر السيّد القوي والفخور صفات خسيسة وغير جديرة بأي إنسان حقيقي- هي للعبد المتأوه الضعيف أسمى الصفات المنقِذة الرفيعة.

وبالتالي ليس هناك – في رأي نيتشه- من شكلٍ لحقٍّ أصلي ملازم للطبيعة البشرية، يمكن للمرء أن يحيا بواسطته، كما لا أحد يعرف متى ظهر. فالحق يتدفق من الجبروت ذاته، والذي تُعرَف حدوده بالقوانين. في كل مكان في الطبيعة هنالك وحدة لا تنفصم بين الحق والجبروت. هكذا هي قوانين الطبيعة: لا تبالي بما هو أخلاقي من عدمه عند تناول المفهوم البشري الضيّق للأخلاق. هناك شيء واحد مؤكّد وهو أنه: لا يمكن لأي كان أن ينتهك قانوناً طبيعياً ويفلت من العقوبة.

وعقوبة مهلكة كتلك للمنتهك هي دليل ظهور الانحلال والانحطاط في المجتمعات الأولى.

وبينما رَكّزت المجتمعات الأولى التمييز بين الحق والباطل على قوانين الطبيعة، حيث القوي والمعاق، تميل مجتمعات اليوم نحو التدهور والانتحار. وكل هذا بسبب نجاح المتواضعين والضعفاء – بصمتٍ وإفسادٍ وتدميرٍ بطيءٍ للقوي- باغتصاب الحقوق لأنفسهم، قالبين بذلك القوانين الكونية بشكل كامل.

مَن يتفحّص آراء نيتشه حول هذا الموضوع لا يمكنه إلا أن يفكر بأنه كان يستمع لكاليكلز في رائعة أفلاطون "غورجياس"، وهو يشرح لسقراط نظريته حول أصل الحق وتطوره. وأنا أنسخ نظرية كاليكلز، بقدر ما يصعب تخيُّل عرضٍ أكثر موثوقيةً منها لأفكار نيتشه:

"مَن يسنون القوانين هم الضعفاء والعامة. يسنونها لما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ويوزعون الثناء والذم للجميع في الوقت ذاته. إنهم خائفون من أولئك الأقوى والأكثر قدرة على الملكية من الآخرين. لذلك - ولكي لا يُهزموا- يخبرون الجميع بأنه من المعيب امتلاك أكثر مما لدى الآخرين، وأنه من الظلم في الواقع امتلاك أكثر مما يمتلك الآخرون. وهذا كله لأنهم - وعلى الرغم من كونهم الأسوأ والأكثر حقارةً- ما زالوا يريدون امتلاك حصص متساوية.

لهذا أُعلِنَ أنه من الظلم والمعيب السعي لامتلاك أكثر مما لدى العموم، وأن السعي خلف المزيد هو مثل الظلم. لكنني أرى أن

الطبيعة ذاتها تظهر بكل مهارة أنه من العدلِ للأفضلِ امتلاك أكثر مما يفعل الأسوأ، وللأقوى أكثر مما يفعل الضعيف. والطبيعة تبدي ذلك بأشكال عديدة حقاً، وبالتالي من الحق أن يحكم الأفضل على الأسوأ ويمتلك أكثر منه.

وكل ما سبق هو عكس ما نفعل؛ إذ نأخذ الأصغر ونتملقهم ونداهنهم لنجعل منه عبيداً، وذلك عبر إخبارهم أنه من العدل امتلاكهم حصصاً متساوية، وأن ذلك هو الحق والإنصاف. ولكن إذا حدث ووُلِدَ أحدهم بطبيعة قوية، وُلد شخصٌ يرتعد ويتمزق وينجو من كل هذا، فإنه حالما يدسُّ قدمه بين تعاليمك وتملقك وكل إغراءاتك وقوانينك التي ضد الطبيعة، ناهضاً – هو العبد- مظهراً كل قدراته ليُصبح حاكماً مطلقاً، ويُشرق هكذا ما هو حقٌّ بالطبيعة". (أفلاطون، غورجياس).

الفصل الخامس

تلخيص وخاتمة:

لقد رأينا أنه وأياً كان شكل بحثنا في طبيعة البشرية المعاصرة، سنجد فيها انحطاطاً كاملاً. فكل الأفكار الهامة التي رُكِزَت عليها المجتمعات المعاصرة تلعب دوراً أساسياً بتقدم هذا التدهور والانحطاط، بقدر ما هي تنشأ عن شروط معيبة؛ شروط لم تعد قادرة على الاستمرار تحت ضغط الحاجات والظروف الجديدة.

ويمضي هذا التدهور بإيقاعٍ متسارعٍ وجارف، ونرى في كل مكان انتصار الأخلاق وحق العبيد؛ نرى في كل مكان القبول نفسه لجدول القيم الذي أنشأته كراهية وضعف المنبوذين، وقادته بلا وعي – أو لربما في تعمّدٍ تام- أكاذيب قادتهم الكهنة والديماغوجيين. لقد أججوا صراعاً مسعوراً لقرونٍ بأكملها مقوّضين المثال الأرستقراطي، الذي جسده اليونانيون والرومان، وضد المثال الديموقراطي السامي الذي مثّله اليهود. فعبر المسيحية، سادت اليهودية.

وقد وِلِدَت مقاومة ما أثناء عصر النهضة، عندما أخذت المحاولة تلتفت مجدداً إلى المثال اليوناني. لكن سرعان ما قضى لوثر والإصلاح عليها، وتمت هزيمةِ آخر تجلٍ مدهشٍ للقوة – نابليون- على أيدي الحلف المقدَّس. وانتصار اليهود والعبيد اليوم تامٌ وكارثي؛ فقد سقطت البشرية – كما رأينا في دراستنا هذه- والعائلة والدولة والدين والأخلاق والحق في أيدي العبيد، وهي الآن بين أيديهم يشكلونها كيفما شاؤوا (وبما يتناسب مع صورتهم تماماً).

وحتى كل هذا لا يكفي! فالمثال الأحدث – والمدعو "دين الألم البشري"، والذي بدأ بنقش ذاته في الضمير الإنساني والهيمنة على الدين والأخلاق ومنظورات العدالة المعاصرة- استُلهِمَ من مبادئ أشد وضاعةً وكارثية. ويميل دين الرحمة والإحسان هذا (والذي بشَّرَ به الاشتراكيون والخياليون بعاطفةٍ عظيمة) إلى استبدال المسيحية، مستوعباً عناصر جديدة هي وليدة احتياجات أكثر حداثة. وكما هي الحال مع كل دين، نظَّمَ هذا الدين الجديد الغرائز وميول الحقبة الحديثة، مصعِّداً إياها ومتنبئاً بانتصارها كضرورة تاريخية غير قابلةٍ للتشكيك. ولم يترك هذا النصر إلى الحياة الأُخرى، بل قال إنه محققٌ هنا على هذه الأرض. وكانت هذه الدقة بالذات ميزته الأعظم والأشد خطورةً وكارثية في الوقت ذاته. وهو بهذا جذب وصعَّدَ تلك الغرائز البشرية القوية التي تتوق لإشباعٍ فوريٍ ومحسوس. بنفس الطريقة،

وأمكن تحويل كذبة وعوده إلى أمرٍ ملموس ومعروف على هذه الأرض ذاتها، ليغدو من ثمَّ معرَّضاً عند انكشاف عجزه عن الإيفاء بوعوده، للإطاحة به (هو دين التعاطف العلماني). وفي تناقضٍ صارخٍ مع ذلك، يحوِّل الدين المسيحي – الذي ينقل زمان ومكان تحقيق عهوده إلى العالم الآخر والحياة الأُخرى- كل محاولة لإثبات كذبته بشكل فوري ومحسوس إلى محاولة عبثية لا جدوى منها.

إلا أن دين "الأسى الإنساني" الجديد هذا ما يزال على أية حال في مرحلته الأولى الصاعدة، وما يزال يجذب إليه جماهير غفيرة من الناس في أيامنا هذه. وما الذي يمكن لهذا الغزل العنيد على عتبات الرحمة، وهذا التدفق المفرط للحنان، أن يُثبت سوى أن البشرَ صاروا ضعفاء عاجزين، وخائفين ليس من آلامهم فحسب، بل ومن آلام غيرهم أيضاً، كما لو كان إنذاراً بإمكانية سقوط كلٍّ منهم فريسة لبؤس كهذا؟ (هذا بؤسي الرهيب اليوم، ولكنه سيكون لك أنت أيضاً غداً).

وهذا ليس بكل شيء: فقد بدأ البشر بالتردد – بسبب الرغبة- عندما يواجهون بمسألة التطبيق الصارم للقانون في حالة العقوبات الشديدة على المجرمين. ظاهرةٌ لوحظت سابقاً أثناء انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية وقبل فترةٍ قصيرة من الثورة الفرنسية، وهو أمر طبيعي. إذ يأتي زمنٌ في حياة كل مجتمع- إثرَ اضطرابه ووهنه

نتيجة الضعف- يأخذ فيه المجتمع جانب المجرم ويتردد في فرض عقوبات ضد الجريمة قُصِدَ بها ضمان أمنه.

إن الخوف من الألم والجُبن في وجه تنفيذ العقوبات هما من أعراض الانحلال والانهيار.

وهنا يبدع نيتشه ترتيلةً عذبةً للألم رفعت من شأنه وأكدت نبالته:

"الألم هو المربّي الأكبر للبشرية، وله ندين بكل الأفعال النبيلة والدوافع العظيمة. وفي مدرسة الألم – الألم الرهيب- وصلت البشرية إلى أسمى مراحل تطورها، موجَّهةً بكل حكمةٍ وثقة عبر هذا المعلم الصارم. إنه توتُّر الروح هذا – المنتصب شامخاً، والمتعلِّم الوقوف قوياً تحت ثقل كل الألم-، هذا الخوف والرعب المولود من خطرٍ عظيم، هذه الشجاعة التي تدفع المرء نحو البقاء، نحو التحمّل، نحو تحويل الألم والاستفادة منه، وأخيراً: كل ما هو غامض وحكيم ومبدع وعظيم- كل هذا، أين يمكن لروحٍ تعلمها إن لم يكن في مدرسة الألم؟ هناك في كل إنسان خالق ومخلوق. هناك شيءٌ ما هو مادة، محدودية، فيض، طين، وحلٌ وسخفٌ وفوضى. وهناك خالق، نحات، صلابة المطرقة، عين الفنان، فرح اليوم السابع. يتوجّه تعاطفك نحو القِسم الأول، الذي يجب والمقدر له أن يعاني، الممزَّق إلى شذرات، والمنثور في المستنقعات، المحروق المُطَهَّر بالألم والنار. أما تعاطفي،

أليس من الواضح إلى أي قِسم من الإنسان سيتجه، مكافحاً ضد تعاطفك الجبان الذليل؟ هل ترى؟ تعاطفٌ مُشهرٌ في وجه آخر".

ليست مفهوماً شديد الأنثوية للألم وبشريةً منزوعة الحياة فحسب، بل هو أيضاً بلا أية عاقبة. دعونا نفترض - كواقعٍ حقيقي- أن هذا الميل المعاصر إلى دين الرحمة يستحق التعميم والاعتبار الأسمى. ما الذي سيحدث حينئذٍ؟ لن نخفق بتقليل مقدار المعاناة العالمية فحسب، بل وسيؤدي ذلك إلى زيادته أيضاً. وبالإضافة إلى ما لدى المرء من هموم، سيغدو مثقلاً أيضاً بهموم الآخرين. بهذا تبدو المواساة إضعافاً لغريزة الحياة الطبيعية، وارتداداً إلى الفقد التدريجي للطاقات ونشراً مُعدياً للتعاسة.

وكل هذا يعود إلى إفساد الطبيعة البشرية بمبادئ الوصايا العشر التي أملاها الهالكون، والمتناقضة بالكامل مع قوانين الطبيعة.

ما الذي يمكن لهذا الميل الحديث إلى الدين الجديد أن يكون سوى انتهاكاً لقانون رئيسي: قانون الانتقاء؟ وفقاً لهذا القانون يختفي الضعفاء في مسيرة الصراع من أجل البقاء. هل يمكن للمسيحية والاشتراكية قصد شيء ليس معارضاً لقوانين الطبيعة؟ إنهما تكافحان للدفاع عن والحفاظ على حياة الضعفاء والفاسقين والبؤساء والمعاقين. بالتالي هما يخلقان عالماً أكثر قبحاً، ويجعلان نقض الحياة أسهل، وكل ذلك نتيجة إما للاشمئزاز أو للتعاطف.

من ثم نرى في المفاهيم التي تم ترسيخها سلفاً، وفي ميول الإنسانية المعاصرة الخفية التي تنتشر أكثر يوماً إثر يوم، انتصار أفكار العبيد والضعفاء، وانجذاباً بلا توقف نحو الكارثة والعدمية التشاؤمية.

الفصل السادس

الوجه الإيجابي لفلسفة نيتشه

ما الذي يجب فعله الآن؟

نشاهد بأعيننا دفع الإنسانية والعائلة والدولة والدين والأخلاق – مسممةً بجدول القيم المعاصر وأعمال العبيد والمهزومين- للبشرية المعاصرة إلى قفص الاتهام وإنكار الحياة نفسها. هل من المقدَّر انقراض البشرية قريباً، أم أن هذا الألم واليأس هو مجرد آلام المخاض لعالمٍ معافى قوي جميل؟ هل ما زلنا قادرين على إبداع جدول قيم جديد، جدول يتناغم مع قوانين الطبيعة التي لا مفر منها، ومع ذهنية جديدة يمكنها المساهمة بإغناءٍ نبيلٍ للحياة؟

جواب نيتشه توكيدي تماماً، وبالمنظور "الديونيزي". فعبر اكتشاف القانون العالمي الذي يحكم المتعضيات الحية – النباتات والحيوانات والحياة البشرية- غدونا في موقع اكتشاف وصايا عشر جديدة لا تقبل الحياة وتحفّزها وحسب، بل وتستفيد من العدمية والتشاؤمية ذاتهما كأدواتٍ في تعزيزها.

ووفقاً لهذا القانون سنُصلح بعزمٍ كامل العمارة البشرية المعاصرة. وسيرشدنا بحيث نكتشف قدر البشرية والعائلة والدولة ونفهم بشكل أفضل علاقاتها المتبادلة، الأمر الذي سيؤدي إلى حالة من الأخلاق والعدل الحق، نتيجةً لهذا القانون العالمي ولتطوره المتناغم.

ما هو هذا القانون؟ بدراسة كل قوانين الطبيعة المثبتة في كل مرتبة من الحياة العضوية، يجد نيتشه أن الهدف النهائي منها والميل الجارف لها هو نحو "إرادة القوة". بالتالي ليس صراع البقاء هو ما يحكم الكائنات بل صراع السيادة والهيمنة. ليست الحياة بذاك الهزال والتقشُّف لترتاح راضيةً في كَفافٍ نباتي ومجرد البقاء والتكاثر، ضامنةً لذاتها أضيق معايير الرفاه. الحياة توقٌ شديد لتحقُّقٍ في الخارج يتسع إلى أقصى حدود الممكن، هي ميلٌ أبدي لتجاوز الذات. تضع كل متعضية حية معافاة لنفسها هدفاً هو غزو الكائنات المحيطة والهيمنة عليها – حتى لو عنى ذلك تضررها ودمارها في سياق تلك الصيرورة-، ولا تعرف الراحة أبداً بعد انتصارها، بل تتجه مباشرةً بنهمٍ لا يرتوي نحو غزوٍ جديد. دائماً وأبداً وبلا نهاية ما دام هناك رمق في الحياة.

هو أمرٌ نشاهده يوماً إثر يوم في النباتات والحيوانات، وهو ينطبق أيضاً على الإنسان، فكل ما هناك في أعماق أي إنسانٍ معافى هو الأنانية؛ قوةٌ جامحةٌ رهيبة تدفعه نحو السيادة والهيمنة، نحو

تضخيم ذاته، ونشرها إلى أقصى حدود يمكن أن تصل إليها. إن مَن يعتقدون بأنّ البشر في أعماقهم لا يسعون إلا خلف السعادة، يُضللون أنفسهم، وهم يخدعون ذواتهم إذا قصدوا بـ"السعادة" حالة السلام والسكينة، أو حالة الرضا التي لا رغبة أُخرى بعدها. حقاً إن البشرية تمضي نحو حالة سكونٍ كتلك، لكنها تفعل ذلك عبر حركةٍ أزلية أبدية. وحالما يصل المرء النقطة التي يُعتزَم التوقف عندها، لن يرى نفسه إلا وهو يندفع نحو غزوٍ وآفاقٍ جديدة، دافعاً تلك النقطة إلى حدٍّ جديد، ما هو بدوره إلا بدايةٌ أُخرى جديدة. وبالتالي الحاجة البشرية الأعمق الكامنة في أعمق أعماق الطبيعة البشرية هي قلقٌ أبدي وميلٌ مستمرٌ نحو التوسُّع.

باكتشاف قانون الحياة هذا، يغدو الفيلسوف مُلزَماً باعتماده كأساسٍ لجدول قِيَم جديد. لينجح بذلك بتعريف هدف البشرية وترتيب قيمها المختلفة هرمياً وفقاً لفائدتها في تحفيز الهدف البشري.

باختصار: يتمثَّل أساس ومبدأ الوصايا العشر الجديدة التي أدخلها نيتشه في إرادة السيادة والهيمنة. الأمر الذي يمنحنا النتيجة الفورية اللازمة لهذا المبدأ: هدف الإنسان هو التجاوز المستمر لذاته، الذهاب الأبدي نحو ما هو خلف نمط الوجود الحالي لـ"الإنسان" وفوقه، وإنتاج نمط آخر، أكثر امتلاءً وحيويةً وتناغماً في التوافق مع قانون الطبيعة: "الإنسان المتفوق".

كيف نعرِّف الإنسان المتفوق؟ وما الذي يجب علينا فعله لتجسيد هذا النموذج البشري الأعلى (وسيلة تُصبح - في الوصايا العشر الجديدة- هدفنا)؟

الإنسان المتفوق هو "القادر على الإطاحة بكل بطولة بجدول القيم الحالي، وتطوير كل الصفات البشرية إلى أقصى حدٍ يمكنها الوصول إليه. هو مَن يطرح مجدداً هدفاً للحياة يتمثل في الميل إلى تجاوز ذاته باستمرار".

بالتالي، وفي سياق اتخاذ الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف، لا بد من الإطاحة "بطولياً" بجدول القيم المعاصر، بجدولٍ لم يعد بإمكانه العمل كـ"محفِّزٍ" للحياة.

هنا يدرك نيتشه أنّ الإطاحة بهذا الجدول من أجل كل البشر – وبلا أي تمييز- ليس مستحيلاً فحسب، بل وهو عديم الفائدة أيضاً وشديد الخطورة.

بوصولنا إلى هذا المكان، يكون نيتشه قد شرَّح وانتقد وحاكم وأدانَ القيم المعاصرة. وقد أعلن أن هذه القيم تشكل كارثةً لكل من هم مثله تماماً، إذ بعد كشفه للكذب، واجه في داخله موقفاً مُرعِباً لا انسجام فيه بين حياته الداخلية والخارجية، بين ما يعتقده في صميمه وما هو مُلزَم على سلوكه. الأمر الذي أدى به إلى الغرق في اليأس والعدمية.

في وجهه السلبي، كان عمل نيتشه عشوائياً وسطحياً، تحرّكه قوة تدميرية. ولكن مع وصوله إلى مهمة البناء الشاقّة، أخذ الفيلسوف الجريء بالإحساس بنفسه ملزَماً باتخاذ خطواتٍ تصالحية والقيام ببعض التمييز. كما وجد نفسه ملزَماً بتقييد وصاياه الأخلاقية الصارمة الخطرة بقلةٍ من المريدين "المختارين".

لاحظ نيتشه أن كل ما هو مفيدٌ كمُغَذٍ ومحفّزٍ لكائنات معينة هو سُمٌّ للآخرين (وغالباً ما يكون مميتاً)، والعكس صحيح. وبالتالي فإنّ الدين والأخلاق والأنظمة السياسية المعاصرة ومفاهيم الحق – التي هي غذاء لا غنى عنه ومساكن رائعة للضعفاء الذين يتطلّب بقاؤهم دين الرحمة والمساواة الاجتماعية السياسية- تقود الأقوياء إلى الاختناق والموت. والعكس صحيح، فعندما يجب على الضعفاء منح طعامهم للأقوياء، سينتهي الأمر بهم بالهلاك.

لذلك يُقسِّم نيتشه المجتمع إلى طبقتين - متمايزتين عن بعضهما جذرياً-، كل منهما لها حقوقها وواجباتها الخاصة بها حصراً، مع قوانين وأهداف مختلفة. تتكون الطبقة الدنيا من البورجوازيين ومتوسطي الحال، الذين يرضون بكونهم تروساً بسيطةً في الآلة الاجتماعية الهائلة. ولا تحتوي هذه الطبقة العمال والفلاحين والتجار والصناعيين وحسب، بل وتضم العلماء والحكماء الذين يحصرون أنفسهم باختصاص ضيق معيَّن ويعملون بجدٍّ وكدح طيلة حياتهم

بطاعةٍ وصبر لصالح الخير العام. هؤلاء هم عبيد المجتمع النيتشوي، والمُقَدَّر لهم دعم الطبقات الأعلى (المرتبطين بعلاقة الواجب معها) وطاعتها.

أما الدولة، السلطة الراسخة، فتتكون من الطبقة الأعلى، التي تتمنى ضمان أفضل استمرارية للحياة للعامة. إن الجماهير تحيا حياةً أكثر سعادةً وأمناً من الطبقة الأعلى منها. وهي لا تحتاج أبداً بعد الآن توجيهاً أو تعبيداً للطريق للتقدم نحو الأمام. بالتالي، سيتحرر غضبها والمخاطر المحيقة بها نتيجة فعل الخالقين. وسيكون الدين أعظم عزاءٍ لها، مموّهاً تواضعها وحياتها الشاحبة ببهاء الآمال الميتافيزيقية، ومعلِّماً إياها البقاء والرضا. إذ هم قد أدّوا واجباتهم، وأعطوا لله ما هو لله، ولقيصر ما هو لقيصر.

فوق هذه الطبقة ومُشرِفَةً عليها، تقف طبقة المحاربين التي ترعى حراسة القوانين والنظام الاجتماعي. حيث ترى هذه الطبقة أنَّ الأخلاق والدين – وتخاصص الحقوق الرسمي- المقبولة من الطبقة الدنيا، أمرٌ كارثيٌّ ومسببٌ للشلل. وهو عاجزٌ عن تضليلها بعد الآن، لذلك يغدو من الضروري لها إيجاد طريقةٍ مختلفةٍ لوعي الحياة. هذه الطريقة سبق وحددها إلهٌ من نوعٍ أعلى، إله منه تنشأ كل مراتبهم. إنه نوع بشري أسمى: "مركّب"، ملوكي ووحيد، يختصر في ذاته كل تطور العِرق البشري عبر القرون، ويقف كمحطة في منتصف طريق التقدُّم

الإنساني. يعرف هذا النوع من البشرية أن الواقع ليس سوى مادةً نحن وحدنا من يمكن أن يضفي قيمةً إليه. ويعرف هذا النوع الجديد أن تأثيرنا الخلاق قادرٌ على تحويل كل من الحقيقة والكذبة، الخير والشر، والرغبات وكل الغرائز إلى أدواتٍ تميل مع الزمن لتجاوز نفسها باستمرار وإلى الأبد.

هكذا يتم تعديل ترتيب القيم في جوهرها ذاته. وتصبح الأخلاق والحق ومهمة الطبقات العليا مختلفة بالكامل عن تلك التي للطبقات السفلى. ويبدو الخير هو كل ما يحرّض القوةَ وتقدّم الحياة إلى الأمام، والشر هو كل ما يوهن الحياة ويبددها.

"لا أعلم ما إذا كانت الحياة في جوهرها خيرةً أو شريرة. لكنني وطالما ما زلت على قيد الحياة، أريدُ لحياتي أن تكون جميلةً ومرفّهةً إلى الثُمالة، في الداخل والخارج. بالتالي، سأقول *نعم* لكل ما يجعل الحياة أشد كثافةً وأكثر جمالاً. وإذا ثبُتَ لدي أن الخداع والوهم قد يكونا مفيدين لتقدم الحياة، سأقول *نعم* للخداع والوهم. وإذا ثَبُتَ لدي أن الغرائز – المدانة من كل الأخلاق في أيامنا هذه (الوحشية، المبادرة، الجرأة التي تتعدى كل حد، التوهُّج والحماسة كما لو في حرب)- قادرة على تعزيز الحيوية البشرية، سأقول *نعم* للشر والخطيئة. وإذا ثَبُتَ لدي أن الألم يساهم في تغذية النوع البشري بقدر ما تفعل اللذة، سأقول *نعم* للألم".

لا اهتمام للإنسان المتفوق بأي شكلٍ من الأشكال بمنح البشرية تباشير السلام السارة: بل هو يميل باستمرار لاتخاذ أشكالٍ أعلى وأسمى، لا يعرف أي راحةٍ في مسيرة فتوحاته، وجاهز في كل وقت للمخاطرة بحياته وسعادته لصالح هذا الارتقاء. "لم آت لأجلب لكم السلام، بل الحرب والنصر. السِلم؟ ما هو إن لم يكن وسيلةً لحروب جديدة؟ والسلام قصير الأمد أفضل بكثير من آخر مديد".

بالنسبة لنيتشه: الحرب "أب الأشياء كلها"، وأعظم أداةٍ للتقدم والانتقاء. وهنا يقف بمواجهة بعضهما في تناقضٍ يستحيل حلّه: فكرتان، شخصانِ، عِرقان: واحدٌ أكثر قوة وحيوية وهو الذي سيسود، وثانٍ منحطّ – وبالتالي ليس جديراً- ولن يُسمح له بعد الآن شغلَ أي مكان أو إعاقة تقدم وتوسُّع القوي والمتفوق.

وبينما تضع الوصايا العشر – التي يقبلها نيتشه ولكن: للطبقات الدنيا وحسب- التعاطف بين أعلى الفضائل

وأسماها مرتبةً، ينادي الإنسان المتفوق - على عكسها- بالوحشية. يحتاج الخالقون للصلابة - كما الألماس أو كإزميل النحات- إذا رغبوا بنحت وتشكيل مرمر الحظ الخام، إذا رغبوا بنصب الجداول الجديدة ودمغ أزمنتهم بدمغة أناهم. ومن منظور نيتشه لا يفشل التعاطف بالارتقاء إلى مستوى فضيلةٍ فحسب، بل وهو الرذيلة الأشد إيذاءً وغير طبيعية إطلاقاً. "عسى أن يموت الضعفاء؛ هذه هي

الخطوة الأولى في التعبير عن حبي للبشرية. للتعاطف أثرٌ مدمِّر، إذ يهيج الصراع ضد قانون التطور والانتقاء، ويدفع الناضجين نحو الموت".

" لم كل هذه القسوة؟ سأل لوح التقطيع السكين في أحد الأيام".

لكن الإنسان المتفوق يجب أن يكون بكل تلك الوحشية ليس نحو الآخرين وحسب، بل وباتجاه نفسه أيضاً. هو مُلزَمٌ بإنكار السعادة والراحة والسلام، لأنه يعلم أن البشرية لا تتقدم نحو هدفٍ ثابت ومحدد. التدفّق سنّة الأشياء، بلا أية نهايةٍ محدَّدة مسبقاً، فالحياة تلتمس التقدم والصعود دوماً وأبداً. الأمر الذي يعني أنه لا يجوز للإنسان أبداً أن ينظر إلى نفسه وكأنه قد وصل إلى السماء والمحطة الأخيرة في أي يومٍ من الأيام، فالراحة ليست سوى تحضير لحرب جديدة عند الإنسان المتفوق، وحياته ليست سوى تجارب تمضي دوماً وأبداً نحو الأشد خطورةً وبطولة. فمسعاه دوماً هو حياةٌ كلية الحضور والكثافة، ومن ثم فإنه يقبل الفرح الأعظم والألم الأعظم بالامتنان ذاته.

هذه هي الطبيعة، وهذه هي مهمة الإنسان المثالية، التي تخيلها نيتشه وتاق إليها. إذ سيُدمِّر الإنسان المثالي في نفسه وعبرها جدول القيم السائد، وسيرى ميتةً أمامه تلك الآمال التي لطالما قامت بمواساته والوقوف بجانبه: الدين والأخلاق والدولة والإيمان في وجود

روح وفي الحياة الأُخرى، والاعتقاد بالإرادة الحرة وتساوي البشر. وعلى الرغم من كل هذا التدمير، يجب على المرء ألا يُثَبَّط ولا يفقد جأشه، بل على العكس، يجب عليه التقدم دوماً بلا أي وجل، مباركاً حياته ومحتضناً إياها في كليتها سويةً مع آلامها وملذاتها.

لن يحسد الحشود على البيئة التي فيها خلاصها: الرفاهية الوفيرة والاقتصاد المكتفي ذاتياً؛ لأنه سيفهم جيداً أن للسمكة مصالحها، وأن البقاء في أسر بركتها المائية بدلاً من اللحاق بالطيور إلى السماء في طيرانٍ محموم، هو حاجة عضوية حيوية حقاً.

وكما سبق ورأينا، يخلق المتفوّق لنفسه أخلاقاً خاصةً به هي غير الأخلاق المعتادة، ويصوغ فضاءً للنشاط والإدراك هو "خلف الخير والشر"، أو فضاءً يحتوي كلاً من الخير والشر ويستخدمهما لتحقيق هدف التجاوز. "إن الإنسان الشرير ليس أسوأ – وهو عالأغلب أكثر فائدةً – من أفضل البشر وأكثرهم أخلاقاً: لأنه يحافظ عبر ذاته على الغرائز التي – لصالح كل آخر أيضاً- لولاها لغدت البشرية عاجزةً وعقيمةً وفاسدة لزمن طويل. لقد أصبحت هذه الأرواح الموهوبة بأعظم الغرور والخبث سبباً لأعظم التطورات في العالم. فهي مَن تشعل الرغبات الأكثر خموداً في المجتمع، وهي من تدفع الناس إلى مواجهة كل فكرة وكل مثال مع الآخر، النقيض. وكل هذا عبر استخدام السلاح، وانتهاك الحدود، وتخطي كل شفقة، وأيضاً الدين

الجديد والأخلاق الجديدة. يكتشف معاصرونا الشر دوماً في روح كل معلِّمٍ وكل نبيٍّ لدين جديد أو أخلاق جديدة. بسبب اعتبارهم لكل جديد شراً، كما هي الحال عند تدمير الحدود المقبولة وقواعد التقوى التي قد تكون موجودة. والقديم وحده المقبول، وراسخ كإسطبل، متحصناً في الضمير، وموسوماً بالخير والأخلاق. لطالما كان الفاضلون في كل العصور هم مَن درسوا القوانين السائدة واحترموها وتدبروا أمر جعلها منتجةً. لكن لكل نوع من التربة وقت لاستنزافه وإقحاله، ليغدو من الضروري بعدئذ مجيء حصادة الشر وقلب التربة، لحفرها ونثرها شذراً.

هل كان ألفريد فويلّه مخطئاً عندما قال إنه "بالنسبة لنيتشه: الأخلاق هي الأشد سميّةً بين السموم؛ فإذا أخفقت البشرية بتحقيق تقدمٍ عظيم، هل الأخلاق هي السبب؟ لقد وُجّهَت انتقادات مجحفة كهذه لنيتشه، وهي ناتجة عن الدراسة المجتزأة لأعماله. فالأخلاق في نظر نيتشه خطرة في أيامنا هذه لأنها تعجز عن تضليلنا وبالتالي لا فائدة منها كمؤثّر محفِّزٍ للحياة والسلوك. أي إن الأخلاق سامة فقط لأولئك الذين غدت عاجزة عن تضليلهم. أما بالنسبة للبقية، فهي أكثر من مفيدة، إذ هي تبعدهم باستمرار عن العدمية. وبلا أخلاق ستنتهي البشرية – بعد عجزها عن احتمال انهيار كل آمالها- إلى المرَض والدمار.

كما أنه ليس من الصحيح – كما يزعم فويلّه- أن نيتشه يخلط الأخلاق بالمسيحية. إذ يرى نيتشه منذ البداية أن الأخلاق المعاصرة هي نتاج للمثال الهودي المسيحي. وهذا ليس بهدف ترك البشرية تجري بلا لجام، بل على العكس، لتطويق وموازنة رغبات كتلك بأخلاق، "أخلاق" أشد صرامةً وأخلاقية. إن النقد الوحيد - والأشد خطورة- الذي يمكن توجهه لمنظومة نيتشه الإيجابية يتعلق بتقسيمه الاعتباطي للبشر إلى طبقتين: طبقة "العبيد" وطبقة "الأسياد". كيف يمكن التمييز بين هاتين الطبقتين؟ ما هي الصفات المميّزة لـ"السيّد"، وما هي تلك المميزة لـ"العبد"؟ بلا أي شك، سيضع كل شخص نفسه في الطبقة الأولى، نافضاً بذلك لجام الأخلاق والعدل، وموجّهاً بذلك تهديداً كبيراً للمجتمع والدولة.

هكذا بدأت أسس عمل نيتشه بالارتعاش، وكل عمارته بالتفتت والانهيار. في هذا الوجه نجد الجزء الأكثر هشاشةً في تعاليم نيتشه، وليس في تناقضاته البينة التي تظهر أمامنا في كل خطوة. إن تناقضات كهذه ستختفي حالما نضعها في سياقها المناسب: روح الكل التي تتخلل عمل فيلسوفنا بأكثر الأشكال تناغماً واتحاداً. على سبيل المثال: يمدح نيتشه – من جهة- الرغبات ويعلنها مقدّسةً ورفيعة، ويعلم – من جهة أُخرى- في الوقت ذاته ضرورة إخضاع الرغبات لنظامٍ تنسُّكي وصارم. يختفي التناقض السابق حالما ندرك أن الرغبات تكون ميزةً فقط

عندما نخضعها لانضباط إرادتنا، ومتخذين منها فرصةً لتأكيد قوة إرادتنا وشخصيتنا عبر الصراع.

وفي مكانٍ آخر يعلمنا نيتشه أن الأنانية الصلبة هي أساس كل تجلٍّ للحياة، ليأتي بعد قليل ويهلل لـ"الحب العظيم". هذا ليس تناقضاً. بل هو نَسْبٌ للأنانية إلى منظورها وشدتها الحقيقية. فعندما يماثل المرء نفسه مع الوجود ككل، وعندما يكرّس حياته ويضحي بها كرمى لفكرة كونية ترفع الكل وترتقي به، حينها وحسب يغدو قادراً على إشباع أنانيته إلى حد الامتلاء والثُمالة.

هذه هي تعاليم نيتشه.

قلما أثار فيلسوفٌ ما كل هذا الغرام والكراهية في الوقت ذاته، فضلاً عن كل ذاك الجدال حول قيمة أفكاره ومدى أصالتها، أو حول ما إذا كانت منظومته تدميريةً أم مفيدة.

فردانيٌ متّقد، مثاليٌ أرستقراطي بلا أية مساومة، عدوٌ أبدي لحكومات اليوم الديموقراطية، مبشِّرٌ رهيب بتعاليم اللامساواة الطبيعية. لا ريب أنّ شخصاً كهذا سيثير مليار رد فعل من مجتمعنا المعاصر.

شاعر عريق العمق، فنانٌ مرهف الحساسية، وقحٌ وتهكميٌّ بتعابيره، يثير ريبة العلماء والفلاسفة على حدٍّ سواء. بينما هذه الصفات هي ذاتها التي تلهب حماس آخرين وتؤججهُ بلا نهاية.

إنّ أفكار نيتشه قادرة - في حال فهمها بشكل مناسب- على نفخ الروح بثورة اليوم وأنانيتها إلى حد التشنّج والكاريكاتير. لهذا غالباً ما يتم الخلط بين نيتشه والفوضويين أو المنذرين بعنفٍ وحشي. ويبقى هو حقيقةً خارج أيٍّ مما قلناه.

ليس نيتشه بالفوضوي[34]، إذ يقول الفوضويون بحق الجميع بالنمو بلا أية قيود، وحصولهم على السعادة والحرية، التي تمعن مجتمعات اليوم بتقييدها وسرقتها من الناس. بينما يعلّم نيتشه عكس ذلك تماماً، أن السعادة لا يصح اعتبارها أصلاً من أهداف الحياة؛ بل إن هدف الحياة يجب أن يكون في توسّعها للأمام والأعلى باستمرار، وهي مهمة ستفرض على الطبقة الدنيا العبودية والخضوع، وعلى العليا – ليس استمتاعاً حراً وفوضوياً بعمل الطبقة الدنيا- نظاماً أشد صرامةً وقوة إرادة مؤلمة وشديدة البأس، وسيادة على كل الرغبات المهتاجة وغير الجديرة.

بكلمات أُخرى، تختلف تعاليم نيتشه إلى حدٍّ كبير عن عقيدة الفوضوية. من المُحِق القول إن تعاليم نيتشه تفرض نظاماً وحشياً على كل الضعفاء والمرضى، وإنها ترفض تخصيص حقوق متساوية للكل. إلا أن تعاليمه – من جهة أُخرى- تبشر بـ"الحب العظيم" لكل أولئك الأقوياء القادرين على تحقيق شيء ما هام وبارز. التعاطف

---

34. الفوضوية: فلسفة وحركة سياسية تشكك بكل سلطة ومرجعية، وترفض كل شكل قهري وغير طوعي لتراتبيات العلاقات. وتدعو للتخلص من "الدولة" إذ هي برأيها حالة مؤذية مشوهة وغير ضرورية.

عرضٌ لفقر الحياة وتدهورها، أما "الحب الكبير" فهو إشارة لطبيعة غنية، "تنوء تحت ثقل خصوبتها"، وتحتاج لإنفاق ذاتها.

لا يجوز أن يكون العنف لهدف اكتساب الرفاهيات الدنيوية أو البحث عن السعادة. كما أنه محرَّم على الطبقة العليا (إذ العنف الوحيد المسموح هنا هو ذاك المكرَّس لهدف تجاوز نفسها). كما أن العنف الذي يجب على الطبقة العليا ممارسته لن يكون موجَّهاً نحو الآخرين وحسب – وهذه سمته الأشد أساسيةً-، بل وإلى الذات أولاً وقبل كل شيء.

كما ليس صحيحاً أن نيتشه كان شكوكياً (وهو ما يعتقد به الكثيرون). إذ لا يؤمن الشكوكيون بأي شيء، ويُشككون بكل شيء، ويعيشون بلا أية قناعات أو أهداف. بعكسهم تماماً، يمضي نيتشه خطوةً بعد الشكوكية، وإذ رفضَ كل جدول القيم المعاصَر له، لا يرتاح للشك ولأي ارتيابٍ حين يتعلق الأمر بالحقيقة، بل هو يواصل – بشكل محموم ويائسٍ ولا يعرف الهدوء- البحث عن عقيدةٍ وأخلاقٍ وعدالةٍ وعن الإنسان المثالي وعن الجولة المثالية. ويعلن أنّه لا يمكن للفيلسوف أن يستريح ولمهمته أن تكتمل إلا بعد اكتشاف هذه المُثُل، وينصبها كوصايا جديدة.

بتعصُّبٍ ورع يؤمن نيتشه بالإنسان المتفوق. ويعتقد بعدم المساواة بين البشر، وبالحاجة لوضع القواعد من قِبَل الأفضل والخالقين حصراً. ويؤمن بحياةٍ متوازنةٍ وكثيفة، سبقَ وجسدها اليونانيون قبل

سقراط، وهي ما يجب تحقيقه مجدداً في المستقبَل إذا كان لهذا العالم أن يُطيح بالوصايا العشر ويتبع قواعد جديدة للحياة والسلوك.

ليست كل أفكار نيتشه أصيلة بالطبع. ونجد هذه الأفكار متناثرةً عبر تاريخ الفلسفة كله: ليس لدى السفسطائيين اليونانيين فحسب، بل ولدى المنظِّرين السياسيين الفلاسفة اللاحقين والحديثين: ماكيافيلي، هوبز، لا روتشِفوكولد، كانط، فيورباخ، شتاينر، شوبنهاور، سبنسر، إيمرسون.

لقد طوّر نيتشه هذه الأفكار الأقدم وأعاد إحياءها محيطاً إياها بعباءةٍ ملكية من حديثه، ومضفياً عليها بريقاً شبه أصلي. فإذا قارنّا نيتشه بكانط سنلاحظ حالاً الفَرق الهائل بين الاثنين؛ فكانط عقلٌ هندسي علمي يبني قياسه المنطقي بأسلوبٍ منهجيٍّ دقيق، وضمن عالم النظرية والتجريد، بعيداً عن كل واقعٍ وانفعالٍ وبريق. وباستخدام تعابير فلسفية وعَصِيَّة على غير المختص، يقوّض كانط كل أملٍ من قبلنا بفهم ما يكمن خلف كلماته، أو أيّة محاولةٍ فهم ناجحةٍ لميتافيزيائه. وهو بهذا ينتصب جداراً مستحيلاً - صينياً بكل امتياز- بيننا وبين المجهول. إلا أن أفكار كانط الثورية تنتشر بصمتٍ ضمن دائرة العلماء الضيّقة. ويستحيل على أولئك العلماء الامتداد إلى خارج تلك الدائرة، وممارسة أي تأثيرٍ على الحياة والواقع.

أما نيتشه، فحالما ينتبه إلى تلك الأفكار يشعر – وفي تناقضٍ رهيب على طول الخط- بصدمةٍ رهيبةٍ تنتشر مرتعشةً على امتداد كيانه بأكمله، فيرفع رأسه ويرنو بعينيه بكل ذاك الرعب إلى جدار المعرفة الكانطية الصيني.

ينزوي مغموماً، ويقفزُ ثائراً مهمهماً بكلماتٍ تفيض بالنبوءة، وبحدّةٍ لا تُعهَد من الفلاسفة عادةً، ليُحرِّر غضب روحه بأبياتٍ غنائية ونَثرٍ فلسفي.

باختصار: ما حصَرَهُ كانط بالعالَم النظري وربط قدره بأضيق دوائر العلماء، يقذفه نيتشه إلى بحر الحياة الحقيقية، سابراً نتائجه العملية، مستخدماً إياه كنقاطٍ مرجعية لتحديد نوعية القيم وترتيبها. على أساس هذه الصياغة المفاهيمية لمشكلة العدمية المعاصرة، يطمح نيتشه لتشييد عمارةٍ جديدة، عمارةٍ متوافقةٍ مع نتائجه.

يبدو كانط مثل دماغ أكثر منه بقلبٍ حساس. بعكسه تماماً نيتشه، الذي يتمتع بحساسية أوسع من الخيال. وهو يمثِّلُ لكانط ما مثَّله فرديناند لاسال لماركس. حالما يُدرك نيتشه فكرةً ما، تنتشر تلك الفكرة كإشارةٍ مرتعِشة عبر جهازه العصبي كله، لتَنْصَبَّ بكلِ شغفٍ وسُخطٍ وحلُمٍ وسخريةٍ ومفارقةٍ ونشوة. وفي هذا بالذات يكمن سر تأثير نيتشه الهائل. فلكي تحرّك مجموعة من الناس وتثيرهم وتترك أثراً في الحياة، يجب أولاً على الفكرة العظيمة أن تتحوَّل إلى عاطفة

وجدانية عميقة وشغف. وهكذا هي أفكار كانط وفلاسفةٍ آخرين، فبعد أن يأخذها نيتشه ويمارس ذلك التحويل العميق عليها تتحوّل تلك الأفكار إلى عواطِف تفيضُ بالحيوية وشغف.

هذا هو سبب ممارسة أعماله ذاك التأثير العميق على الحياة الثقافية والأدبية والسياسية في أوروبا المعاصرةِ

هل هذا التأثير مفيدٌ أو ضار؟ يستحيل تقديم إجابة تصنيفية سلباً أو إيجاباً.

إذ يمكن لتعاليم نيتشه أن تُفسِدَ توازن الكائنات التي يكون الطموح والأنانية لديها سلفاً في حالة تضخُّم مفرطٍ. تميل كائنات كهذه لتشرُّب كل ما هو موجود في كتابات نيتشه ويساهم في فرط تحريض الرغبات والانفعالات، كما يميلون لتخطي أو تجاهل الجانب التنسّكي والإيثاري من تعاليمه. لينتهوا بهذا إما كحالاتٍ هزلية أو ككائنات غير إنسانية. في الحقيقة، كثيرون هم مَن ألقوا اللوم على نيتشه في ظهور حالات كتلك، لكنهم كانوا ظالمين له بذلك. فنيتشه كان ليكون أول من ينكر ويذمّ أشخاص كأولئك في حال عرف بوجودهم وادعاءاتهم. وكان ليكشفهم ويعريهم بهجائه المرير الذي لا يعرف رحمةً ولا تراجع.

من جهةٍ أُخرى يمكن لتعاليم نيتشه أن تساعد أولئك المتذبذبين المتأثرين بالأخلاق العاطفية وأدب أيامنا الفاسدة، وتعلمهم مواجهة

الحياة بأقصى ما يُمكن من الرجولة والجَلَد. فتعاليم نيتشه تمضي بالفكر نحو النضج وتقوية الإرادة، وهي تعلِّمنا مواجهة الحياة والموت بشجاعة وانفصالٍ أولمبي.

في أزمنةٍ كهذه التي نحيا فيها، أزمنةٍ تتآكل فيها قوة الإرادة أكثر فأكثر، وتقف الشكوكية سدّاً منيعاً في وجه الحيوية محوّلةً إياها إلى ترددٍ مُطلَق وعجزٍ كامل، أزمنةٍ ترفع فيها الإيديولوجيات الاشتراكية شأن الشفقة والتعاون المتبادَل ضمن القطيع لتصل بها إلى مصافي الواجبات الدينية من جهة، وتندفع فيها الفردانية بلا أي لجام أو ضميرٍ أو هدف – فردانية عدمية لا تعرفُ أي انضباط- لتقلب كل شيء قلبًا مطلقاً لمجرد المتعة والمتعة فحسب، في أزمنةٍ كهذه يمكن لتعاليم نيتشه أن تجلبَ الإصلاح والخلاص لجيلٍ جديدٍ قد ضاع بأكمله. هي تعاليم صارمة، وتفرض العديد من الإلزامات والامتيازات التي تمضي إلى تعميق مزيد من المُثُل النبيلة ونشرها.

في الواقع، وإذا توخينا التفاصيل ومدى موثوقية أطروحاته العامة، سيبدو نظام نيتشه لنا عشوائياً ومتعصّباً. إلا أنه ممهورٌ بالإخلاص في كل تفصيلٍ منه، ومتَّقِدٌ بروح الطيش والشباب المندفع الوحشي. كما يمثِّل هذا النظام العالمَ كميدانٍ والحياة كوسيلةٍ للحروب والانتصارات والهيمنة. يهبُ نيتشه للتلميذ الجِدّي المنضبط برنامجاً يفيض بالحيوية النبيلة والأهداف الفوق بشرية.

وأخيراً، نيتشه هو الخصم اللدود لكل إرادةٍ ضعيفةٍ منهارة، وهو الدواء الخطِرُ الأخير، الذي إما أن يُشفي المريض مرةً واحدةً وللأبد، أو يقتله. وكل أولئك القادرين على الصمود مع فلسفة نيتشه - بلا أي تذلل أو وهن- واتباعها بكل بطولة ومثابرة وبشكلٍ متناغمٍ مع طبائعهم الخاصة بهم، ستكون الحياة والسيادة طوع بنانهم، وملك يمينهم. أما البقية فقدرهم الانقراضُ والشفقة الأبدية.

باريس، 1908م.

مُلحَق

1- للمهتمين بمزيدٍ من التفاصيل حول أطروحة كازانتزاكيس عن فلسفة نيتشه السياسية أُقَدِّمُ ترجمتي لهذا المقطع من مقدمة باروكلوس ستافرو للطبعة الحديثة من نص الأطروحة:

"يغلب الظن أنه قد تم رفض الأطروحة بسبب المادة المقدمة فيها وثورية أفكار مؤلّفها. ويصعب التأكد من تقديمها حتى. وقد سبق وتعجَّب ديمتريس اكسيريتاكس – أستاذ القانون في ايراكليون الذي بحث في موضوعها مطوَّلاً- من سبب صمت كازانتزاكيس المطبق حولها، وعدم ذِكرها إطلاقاً في فصله المخصَّص لنيتشه في سيرته الذاتية "تقرير إلى غريكو". والتفسير الوحيد الممكن هو: "أن الحكم الظالم من قِبَل أساتذته أثار في روحه مرارةً لا يمكن تجاوزها".

2- لقد أصرَّ نيتشه نفسه على أن فلسفته سابقة لزمنها بكثير، الأمر الذي جعلها معرّضةً لسوء الفهم الشديد من قبل كل من اطّلعَ عليها ما خلا قلّة من أشد الأرواح استثنائيةً. كما ادعى أن المفكرين عاجزون عن أي فهم تام يخرج عن السياق الذي يقرره عصرهم وزمانهم. ويمكن لمن يرغب بالاطلاع على نقده للإهمال المدمر

والاعتيادي لفلاسفة وباحثي زمانه لأي دراسةٍ مناسبة للتاريخ، مراجعة: "تأملات سابقة لأوانها:*II* عن محاسن التاريخ ومساوئه"، و"أفول الأصنام".

3- كان روبرت أوين (*1771-1858*) طوباوياً مع شيء من المعرفة القانونية، وحدسٍ قوي، استطاع "بذكائه البسيط والوقاد رؤية منبع وحجم الثروة الجديدة، وحاول تنظيم جدول الإنتاج المتدفق باستمرار، ليضبط الآلية الصامتة وجشع أرباب العمل، وتثقيف العمال، مع نية إجراء تعديلات سلمية تقود المجتمع نحو الظروف الجديدة". وقد رأى - كمصلحٍ اجتماعي- المشكلة الاجتماعية كمشكلة أخلاقية في المقام الأول، إلا أنه أدرك في الوقت ذاته أنّ: "مهمّة المُصلِح لا يمكن أن تتقوَّم في الوعظ وحرمان الآثمين ومعاقبتهم، بل في تغيير الظروف الاجتماعية (نظام المعمَل) من أجل التخلص من الظروف الشريرة التي أدت إلى تحريض الجهل والأنانية والجريمة والبؤس والهرطقة والخرافة والعدوانية والحرب، وخلق ظروفٍ جديد تشجّع المعرفة والصحة والشجاعة والأخوة والخدمة الاجتماعية". ويتابع محرر أعماله قائلاً إن "تجاربه الجماعية المشاعية في أمريكا (*1824-1828*) فشلت بسبب عدم كمال نظريته حول تشكّل الشخصية".

4- هنري سان سيمون أحد أكثر طوباويي القرن التاسع عشر تأثيراً، وقد عَنَت أفكاره وأفعاله أشياء مختلفة للكتاب والمعلِّقين

المختلفين عليه. لقد مارس هذا الشخص تأثراً كبيراً على مفكري اليمين واليسار في الوقت ذاته. ونادى بحكم النخبة المثقَّفة. انتقده كارل ماركس في مؤلَّفه "الإيديولوجيا الألمانية" – تماماً كما فعل مع الطوباويين الآخرين: فوريه وأوين- وهناك أدلة على تغيير ماركس لموقفه منه لاحقاً، كما ادعى فريدريك إنجلِز في ملاحظاته في طبعة لاحقة من "نقد الاقتصاد السياسي". وفي كتابه "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"، رفض لينين بشدة تأملات سان سيمون حول مستقبل النظام الرأسمالي باعتبارها مجرّد "تخمينات" لعبقري.

5- يُعتبَر أوغست كونت – سويةً مع هربرت سبنسر- النصير الأكثر شهرةً (أو سوء سمعة) للوضعية الاجتماعية *sociological positivism*. وهي مقارَبة التمسَت تطبيق طرق العلوم الملموسة لشرح التأمّل في الظواهر الاجتماعية المتحرّكة واستباقها والتحكّم بها. وقد لاحظ جون ستيوارت مل في عام *1865* أنه "على الرغم من انتشار مصطلَحي /وَضعي/ و/وضعية/ إلى حد كبير، فإنّ معنى الكلمتين أخذ يُحَدَّدُ عبر أعداء نمط التفكير الخاص بهما بدلاً من أصدقائه". وكان مِل يفهم بالطبع منظورات الوحدة الاجتماعيةِ وخنق التعبير الفردي الذي تطرحه المقارَبة العلمية لدراسة الظاهرة البشرية. لكنه – وتحت تأثير التفكير الوضعي سرعان ما سينتشر في العالم الإنكليزي إلى الحد الذي دفع غرترود لنزر إلى ملاحظة أنّه بينما "يرافق مِل عالم

الاجتماع كونت، وما يزال مصراً على صداقته مع عالم المنطق كونت، وهي ميزة شديدة الأهمية ليس لعمل مِل وحسب، بل ولكامل تطور علم الاجتماع لاحقاً، ولمنهج العلوم، وفلسفة العلم".

6- كان ديفيد شتراوس وماكس شتيرنر ولدفيغ فويرباخ جميعاً من الهيغليين الجدد. ولاطلاعٍ أوفى على يمين ويسار الهيغليين الجدد يمكن مراجعة كتاب كارل لويث الهام جداً "من هيغل إلى نيتشه". لقد أثار شتراوس ضجّةً كبيرة في عام 1835 عندما نشر كتابه "حياة المسيح"، الذي عاملَ فيه الشكل الإنجيلي للتعبير الديني كنتاجٍ لمخيلة شعرية أسطورية لا واعية، تحتاج لمنهج فلسفي خاص إذا ما أُريدَ فهمها. ثم مضى شتراوس نحو اتجاهٍ أكثر وضعيّةً في مؤلَّفه "الإيمان القديم والجديد" في عام 1872. قامَ نيتشه في "تأمل سابق لأوانه" الأول بمهاجمة شتراوس: "المعترِف والكاتب"، كمتحذلقٍ مغرور إلى حد المرض. أما لودفيغ فويرباخ – الهيغلي الجديد الأكثر أهمية- فقد مارس تأثيراً هاماً على أشخاص مثل فاغنر وماركس. ففي أطروحته "جوهر المسيحية" في عام 1841 قال فويرباخ إن المسيحية هي إسقاطٌ كبير المستوى للقدرات والطموحات البشرية، الأمر الذي يقطعها بذلك ويُغرّبها عن الإنسانية. ويقف البشر نتيجةً لها فقيرين لا روح فيهم. أُعجِبَ كارل ماركس وفريدريك إنجلز أيّما إعجاب بفويرباخ، على الرغم من توبيخ ماركس له على عدم مضيّه بما يكفي في اتجاه

المادية الجدلية المتمحورة حول الممارَسة (وذلك في أطروحاته الشهيرة حول فويرباخ). ثم أتى ماكس شتيرنر أخيراً – وهو فرداني فوضوي عاش بين عامي *1806-1856*- وألَّفَ بياناً غريباً حول "الفرد وما هو حقّاً"، مدعياً أن الفلسفة الهيغلية تصل ذروتها في تجسيد معنى الفرد الفريد. وتبدو أطروحته كأول تدجين للميول العدمية في الفكر الأوروبي. الأمر الذي لم يحاول شتيرنر إنكاره، بل واحتفل بالصفة العشوائية للسلوكيات التي مركزها الفرد وحسب.

7- تكاد تقلبات مفهوم "الحقيقة" في منظومة نيتشه الفلسفية تطيح بالعقل من شدة تعقيدها. يكتب نيتشه: "ما يزال البحث عن الحقيقة يمتلك سحر المواجهة ذاته بقوة دائماً مع الخطأ الرمادي الممل. إلا أن هذا السحر يختفي شيئاً فشيئاً بكل أسف. لا شك أننا ما نزال نحيا في شباب العِلم، ونميل للركض خلف الحقيقة كما التودد لفتاةٍ جميلة، ولكن ما الذي سيحدث عندما تتحول في يومٍ ما إلى امرأةٍ عجوزةٍ عبوسة؟ ما يزال التبصُّر الأساسي في كل العلوم تقريباً إما بالكاد تم اكتشافه أو أنه في ميدان المجهول. كم ستختلف فتنته الآن عن فتنته بعد اكتشاف كل ما هو أساسي فيه (وكل ما سيتبقى للباحثين فُتات تختفي أكثر فأكثر في الخريف)؟".

8- يرى نيتشه أن شوبنهاور وفاغنر ممثِّلَين لداء الرومانسية: فبعكس الفنانين اليونانيين قبل سقراط – الذين ظهرت معاناتهم

الخلاقة من غياب الحياة الصحية، تظهر المعاناة الرومانسية – كما يراها نيتشه- من التكوين المريض ومن تدهور الحياة الحيوية. بالتالي، يبحث الرومانسيون إما عن الراحة أو عن إيقاف كل جهد (الاحتفاظ بالدوافع، النيرفانا، التخدير) أو فرط الاستثارة الاصطناعي أو المبالَغ به (السعار الهستيري، الوضعيات المسرحية، الوحي التشنجي). وعدمية شوبنهاور هي "عدمية معرفية" إذا توخينا الدقة.

9- تتحدث مقدمة نيتشه لكتابه "جينالوجيا الأخلاق" باستمرار عن السعي خلف الحقيقة، وذلك عبر طلب المعرفة، وكثيراً ما تحدّث عن شغف الباحث بالوصول إلى المعرفة. ويُعتبر مشروع نيتشه الجينالوجي محاولةً تأويلية، تبدو كأنها تقترح وجود "نص" حقيقي موضوعياً يجب استخلاصه عبر التأويل. وقد لفت ألكسندر نهاماس الانتباه إلى التوتر التناقضي في فكرة نيتشه المتعلقة بقضية "الحقيقة"، ويرى نهاماس أن هذا التوتر يتوافق مفارقة التنسّكيّة التي يدرسها نيتشه في المقال الثالث من كتابه "جينالوجيا الأخلاق".

وهذا التوافق ينير المفارَقة النيتشوية الخاصة بالحقيقة ذاتها: فكما هي الحال مع التنسّكية بالنسبة لأنماط معينة من الناس – التي تعتبر العفة والحرمان فيها شروط مسبقة لكل حياة جيدة لأنماط معيّنة من البشر، كذلك هي الحال مع علاقة السعي خلف المعرفة مع الحقيقة-، لا يمكن لأية ممارسة للسلطة عبر سعي

معرفي أن تنجح إلا تحت شرط مسبق هو: السعي خلف الحقيقة. ولنلاحظ هنا أن السعي خلف الحقيقة – وليس اكتشاف الحقيقة أو منظور اكتشافها- هو مَن يُفَرِّق أنماط معينة من البشر إلى أعلى وأدنى. إن السعي خلف الحقيقة مفهومٌ تماماً حتى عندما لا تكون الحقيقة الموضوعية – والزائفة- عبارات تفيض بالمعنى. وقد صرّح نيتشه أحياناً أن الحقيقة ذاتها هي "خطأ" معيَّن، (تشيء لنقطة ثابتة عشوائية في سياق الصيرورة الهيراقليطية الذي لا ينتهي). لكن الخطأ هو مع ذلك ضرورة ملحّة للوقوف بوجه الشلل، وبالتالي للحفاظ على الإنسان ونموه، في الوقت الذي تم لعن الحيوان بذاكرةٍ هي سجن له إلى الأبد.

10. يتمثل التعريف الأعمق لظاهرة العدمية – كما فهمها نيتشه- فيما يلي: لقد أثبتت القِيم التي بنى عليها التاريخ الغربي بحثه عن المعنى والمؤسسات والثقافة والإنجازات، أنها فارغة. وغالباً ما وصل الأمر إلى إثبات تناقضها، خصوصاً عند تجلي نتائجها المنطقية أو استخلاصها. وكما صاغ نيتشه الأمر في "إرادة القوة"، ترسم القيم التي عشنا معها وبفضلها حتى الآن نتائجها النهائية. لاحِظ أن المنظور الهيغلي السري للتاريخ باعتباره تفتّحاً وتكشّفاً لنتائج مفاهيمية، ما يزال حاضراً في فكر نيتشه، كما لو كان قياساً يكشف شيئاً فشيئاً عن أطروحاته على امتداد المسيرة نحو نتائجه (باستثناء أن القياس في

هذه الحالة يكشف عن كونه زائفاً أو غير معقول). ويحاول نيتشه أن يوضح أن العقل ليس هو مَن يعمل في الكون، بل إرادة القوة: الأمر الذي يعني حاجتنا لهيغلية مقلوبة (ليس مواقع مصحَّحة منطقياً تتقدم جدلياً نحو حل منطقي، بل انفجارات للإرادة – سواءً كانت "حقائق" عرضية أم "أخطاء" مفيدة- تنظِّم نفسها خارجاً في سياق لا انقطاع فيها.

11. لقد قدَّم مارك وورن مؤخَّراً ترجمةً مماثلةً لتبصُّر نيتشه في العدمية: العدمية هي الانفصال بين خبرتنا المباشرة لظاهرة ما، وتمثيلنا الرمزي للعالَم (الذي هو بالنسبة لنيتشه متطور بلا نهاية). تظهر الأنطولوجيا الكامنة لهذا التنوع المعرفي لظاهرة العدمية في الأقسام الافتتاحية لـ"إرادة القوة": إن أعلى القيم محطِّمة ذاتياً، بالتالي لا تستطيع تقديم أجوبة على الأسئلة الحيوية التي أدت إلى وجودها أصلاً. العدمية هي مرحلة لا مفر منها في الترجمة. لحظة تاريخية تتخطى انهيار النتائج النظرية التي دعمت الحياة حتى لحظتها هذه. وتبقى المسألة أن على الإخفاق التاريخي للنظرية أو الإيديولوجيا – لكي يرقى إلى التوقعات المعوّلة عليه- أن يفعل شيئاً ما بالنظرية أو المنظور نفسه: فالمتطلبات ذاتها – التي يُثبت المنظور عجزه عن حلها- تنتج ليس بسبب قوى تاريخية فحسب، بل وعبر تأمل المنظور النظري ذاته. ومثال نيتشه المفضَّل هو عن المسيحية: لقد نادت ديانة

"العبيد" بالإخلاص، مرتدةً بذلك عن ميكافيلية الطبائع الأقوى الخالية من عقد الذنب. لكنها أيضاً هلكت نتيجة الإخلاص ذاته الذي طالبت به، مع بدء البورجوازيين "الشرفاء" بالتمعّن في الأصول التاريخية للمسيحية، باحثين عن حقيقة النصوص الإنجيلية وإثباتها.

11. في "تأملات سابقة لأوانها *II*: حول محاسن التاريخ ومساوئه": تعتمد الثقافة على "محفّزات". وفي "العلم المَرِح": وحدهم الحيوانات البشرية مَن يصبحون مخلوقات غريبة إلى حد الحاجة إلى إعادة تأكيد دورية لمفهوم وجود أهداف للوجود هي المحفّز الأساسي للحياة. وتلميحه إلى فرط استثارة الضمير هو موجَّهٌ إلى المسيحية في الواقع: فالإيمان المسيحي هو الذي نظَّم الحياة ليمنح شكلاً للمنظومات الفيزيولوجية المريضة وللأعصاب المتدهورة مفرطة التحفيز. العدمية هي إضعاف حاجة الإرادة الطبيعية إلى محفِّزٍ قوي. وليس هناك من تناقض هنا من جانب نيتشه، على الرغم من أنه عند التفكير العميق نرى أن فرط التحفيز -خصوصاً في حال تطبيق ذلك للأسباب الخاطئة وبأسلوبٍ خاطئ ومقوّمات خاطئة- يمكن أن يصل بنا إلى ظاهرة عدمية أصيلة في الموقف. لهذا أُخبرنا أن الأخلاق الإيثارية هي حالة فيزيولوجية أُفرِط في تحفيزها – وهنا نلحظ مجدداً ظهوراً للعامل الفيزيو نفسي باعتباره سبباً أعمق- تؤدي إلى تراجع قدرات الاستجابة الصحية (فقد القدرة الطبيعية على مقاومة المحرِّض)،

كما يجب أن يفعل المرء عند التوافق مع الاقتصاد الطبيعي للمحفزات الداخلية. وقد تكون الفكرة الأعمق هي الآتية: يؤدي صرف الطاقة إلى فرط تقديرٍ لما تم صرف الطاقة عليه. وهو: أمرٌ سيؤدي حتماً إلى خيبة الأمل مما هو، سيُكتَشف أنّه واقعٌ مُفقَر(جدَلٌ عدمي من حيث الأساس).

12. كارل روبرت إدوارد فون هارتمان (*1842-1906*). تشبه معاناته اللانهائية من ألم ركبته وتدهور صحته معاناة نيتشه الطويلة من أمراضٍ غامضة (ربما بسبب مرض الزهري الذي التقطه عندما كان في الجيش) سببت له ألماً مِعَدياً وشقيقة وأرقاً وألماً عينياً والدوار. لقد حاول هارتمان إنتاج تركيب من فلسفة الروح أو العقل الكوني الهيغلية ومفهوم شوبنهاور عن الإرادة. وقد تصوَّر هارتمان منظومته الفلسفية المتعلقة بـ"الروح المطلَقة" كوحدانية روحية، المفهوم المفتاحي لها هو: "اللاوعي". ووفقاً لهذه الرؤية، يُعتبَر كلا من العقل والإرادة مجرد مظاهر محدودة عرضية لـ"اللاوعي". وكل ما يمكن اكتشافه من حكمةٍ حقيقية وأية ذرة من غائيةٍ دقيقة هو موجودٌ في "اللاوعي". والسبب في ذلك كون اللاوعي – بعكس العقل المحدود والإرادة المترددة- معصوماً بعمقٍ من الحواس. لا يعني هذا كون اللاوعي معصوماً عند النظر إليه من زاوية منظورنا المحدودة، بل أن الخطأ يظهر من التعارض العرَضي للعقل في وجه الإرادة، ومن تفريق

كلاً من العقل والإرادة عن اللاوعي. إنّ حل هارتمان للبؤس البشري هو شوبنهاوري بامتياز: اللاوجود وعدم الإرادة هما الأمان الوحيد والمطلق في وجه المعاناة الإنسانية. وبأسلوبٍ هيغليٍّ تماماً، يمكن بلوغ عدم معاناةٍ كهذه عند نهاية الزمن وحسب، عندما يسود جزء اللاوعي ذاك الذي هو العقل على تعلّق الإرادة العنيد بالرغبات الضرورية العابرة. بالتالي هناك واجب على المرء وهو المساهمة بشكلٍ شخصي بتعجيل لحظة مخاض الاستنارة الذهنية، وإن كان يعلم أنّ العِلمَ نفسه ما هو إلا وعدٌ وهمي.

13. تقوم إمكانية توافر القدرة لدى العدمية على التوظيف البنّاء والمشجّع للحياة على مفارَقات علم النفس الفيزيولوجي التي قدمها نيتشه في سيرته الذاتية "هو ذا الإنسان": قد يكون المنحط ما زال يمتلك ما يكفي من الصحة الداخلية والعزم المشجِّع للحياة، للتغلب على مرضه.

14. مِن "إرادة القوة": الإنسانية الحديثة مريضةٌ وفي طور الانحطاط. إلا أنّه وبجانب هذا الداء الكوني هناك نبعٌ للقوة الحيوية والعزم والحياة يختبئ كامناً. هذا التجاور هو ما يشرح قدرة نيتشه على الحديث عن أمله بالمستقبل، بعد كل ما قاله.

*15.*يُعلِّق نيتشه آماله بمستقبلٍ أفضل ليس على تطوُّرٍ تاريخي ما، بل على قسوة الطبيعة والغربلة الكامنة فيها وقانون التخلص من

الضعفاء: فالطبيعة سترى الضعيف وتزيله، في صيرورةِ انتقاءٍ طبيعي مبدِع وأصيل.

16. يتحدث نيتشه في مؤلَّفه "زارادشت" عن الحاجة للتغلب على الشفقة بحيث يُسَهِّلُ الوصول إلى مرحلة الإنسان المتفوق ويُسرِّع.

ويقول في "العِلم المَرِح" إنّه يمكن للعدمية أن تكون دواءً محتمَلاً، دواءً يمكن استخدامه لتقديم الحياة للقوي، والموت للضعيف. ويمضي ستانلي روزن في ذلك ليقترح أنّ بلاغة نيتشه المُغوية – التي لطالما فُهِمَت خطأً على أنها نوعٌ متأخِّرٌ من الراديكالية المساواتية المستنيرة – كان المقصود منها نصب فخّ للضعيف، ودفعه إلى يأسٍ يُعَجِّل زواله (عن طريق الموت إذا كان لا بد من ذلك).

17. يقول نيتشه في "إرادة القوة" إنّ مراحل تطوّر التشاؤمية إلى أزمة العدمية المطلَقة هي التالية: *1.* يتلاشى الضعيف بسببها *2.* يُدَمِّر القوي كل ما نجى منها *3.* يتخطّى القوي القِيَم التي استندت عليها الأحكام بعينها. كما يقول: إنّه يجب "احترام" التدميرية التشاؤمية ذاتها لأنها تُشيرُ للضعيف بضرورة تسريع رحيله. كما يُقدِّم شرحاً لكيفية وجوب حدوث تطهيرٍ مأساويٍّ كهذا: فبعد قطع الضعيف القيَم الداعمة له سيجد الحياة مؤلمةً إلى حدٍّ لا يُطاق، ليَجد القوي – الذي نجى بكل عزم- نفسه وقد صار أقوى.

18. إنّ مفهوم الحقيقة صعبٌ إلى حدٍّ رهيب. ففي الفلسفة التحليلية الحديثة تتحوَّل الحقيقة إلى مجرَّد خاصيّة لعبارات يجب

إخضاعها – إذا كانت تجريبية- لاختبارات تحقُّقٍ قاسية. وفي التحليل الفلسفي التقني اليوم نادراً ما يتم الرضا عن توجيه توصيفاتٍ أنطولوجيةٍ قوية لماهية العالم "الحقيقي" الحَقّة. وكما رأينا في الفصل الأول، يُعَلِّقُ كازانتزاكيس أهميّةً كبيرة على صدقيّة نيتشه الفاضلة. كما يكتشف كازانتزاكيس ويصطاد توصيف نيتشه الثاني لمفهوم الحقيقة: على الرغم من أن الإمكانية الوحيدة لمعرفة العالم تتم عبر تأويلات تعيق التحدّث عن حقيقة موضوعية، تظلُّ هناك مفاهيم ثانية أو من المستوى الثاني للحقيقة غنية بالمعنى. الأمر الذي يعني ربما إعلان هذه "الحقائق" من المستوى الثاني صحيحةً على أساس معيارٍ براغماتي ("حقائق" المستوى الثاني تجعل بعضاً من الأهداف الواقعية ممكنة).

19. لا يرى كازانتزاكيس في تتويج الإنسان المتفوّق حركةً "خارج الخير والشر"، بل مسألة تأسيس لجدول جديد، وجدول قيم مناسب مشجّع للحياة. الأمر الذي يتوافق مع مقدمة "إرادة القوة" التي تتحدث عن الحاجة الماسة لـ"قِيَمٍ جديدة".

20. لقد اكتشف كازانتزاكيس في تعاليم نيتشه تفاؤلية أصيلة إلى حدٍّ يثير الفضول، دلّت عليها ثقة نيتشه بالمعرفة العلمية وبمنظورات التقدم العلمي. يمكن استخلاص هذه الرسالة بشكلٍ من كتب نيتشه الثلاثة: إنساني مفرط في إنسانيته، الفجر، العلم المرح. أما في

"جينالوجيا الأخلاق"، فنرى تبصرات نيتشه اللاحقة العميقة حول التشابه المُنذِر بالخطر بين المزاج العلمي والزهد الديني.

21. هناك فقرات عديدة في كتب نيتشه يؤكّد فيها على غياب أيّة خطة كلية للتطور التاريخي للبشرية، وينتهي بنتائج عديدة من ذلك. على سبيل المثال، يقول نيتشه في "تأملات سابقة لأوانها *II*: حول محاسن التاريخ ومساوئه" إنّ قيمة "التاريخ العظيم" لا تكمن في المحتوى الموضوعي للأحداث القيّمة تاريخياً أو علمياً، بل في العشوائية العميقة غير القابلة للتنبؤ بها، والتي قد يستخدمها قلة من البشر لقَصِّ سرد تاريخي. وفي كتابه "إنساني مفرط في إنسانيته"، يمضي نيتشه إلى ما خلف ما يدور في رأس كازانتزاكيس: أنّ قيمة وجوهر الإنسانية هي نتيجة حتمية لرؤى عرضية وأخطاء عشوائية.

22. لقد اعتبر نيتشه مفهوم "إرادة القوة" مفهومه الميتافيزيقي الأساسي، والذي أوحى إليه به تأمّله في الفوارق بين فكره وفلسفة شوبنهاور.

23. إنّ أسباب عدم اتفاق نيتشه مع فلسفة شوبنهاور هي الأسباب ذاتها التي جعلته يرفض الفلسفة الشرقية في شكلها البوذي: خلف انسحاب الشخصية الماحي للذات هناك توهينٌ للإرادة وحثٌّ لها على الاستلام. "لعب دور الميّت" انطلاقاً من ضعفٍ ويأس وإنهاكٍ داخلي، والأغرب من ذلك فِعل ذلك بدافع من إرادة يائسة

وجبانة بهدف: حفظ الذات. ويعتقد نيتشه أنّ كلاً من البوذية والمسيحية تدينان بمنشئهما لانهيارٍ كارثيٍّ يائسٍ في الإرادة، وبمسعى لمعلّمٍ يخضع الفرد له.

24. يميز سقراط بين ثلاثة أنماط من الخير: خيرٌ يُلتَمَس نظراً لعواقبه (مثل: يبتلع المرء الدواء المر من أجل فائدته لصحته)، خيرٌ يُلتمَس لأنه أهلٌ لذلك (كالصحة مثلاً)، وخيرٌ يُلتمَس للسببين السابقين كليهما. وفي حوارات أفلاطون، يطلب أخواه "غلوكون وأديمانتوس" من سقراط أن يُثبت لهم أن العدالة ورفعة الروح هما خير لأنهما أهل لذلك. إذ ما يزال على المرء اختيار العدالة إذا أمِلَ من ذلك فائدة ما، حتى لو عنى ذلك أن يجلب لنفسه كمّاً هائلاً من العذاب. وهي مهمةٌ لم ينجح بها سقراط بكل أسف

25. يقول نيتشه في "غسق الأوثان": يمكن شرح السيكولوجيا الإحيائية البدائية كتضخّمٍ للاعتقاد بحتمية وجود فاعلٍ لكل فعل، شخص ما مسؤول، ويتمتع بشجاعة تلقي العقاب في حال الضرورة. بكلمات أُخرى، إن وعي الذات السادي لإرادة القوة هو السبب الرئيسي لاشتراط وجود سبب لكل نتيجة. لقد ترجمت المسيحية إرادة القوة هذه إلى مفهومها الخاص بال الروح" أو الإرادة، الذي تمّ نسبه لاحقاً لكل ما يستحق التكلم عنه. إن تأسيس المسيحية للهيمنة على الجسد عنى تلقائياً تقزيم الجسد ضمن حالة مسحوقة وهشة وخاضعة إلى الأبد.

26. إنّ مفهوم الوجود الحقيقي للكيانات هو سابقٌ لتجلّيها الواقعي والملموس التجريبي، هو مفهوم أفلاطوني بوضوح. ويخرج كازانتزاكيس - إثر دراسته لثورة نيتشه ضد المثالية الأفلاطونية- باللازمة النيتشوية الآتية: إن الاعتقاد الغربي بالإرادة الحرة هو إحدى العواقب الطبيعية للأفلاطونية، بقدر ما يفترض هذا الاعتقاد سلفاً أن الأشياء التي ستوجَد – وبالتالي ستُختار "بشكلٍ حر"- هي سابقةٌ لحقيقة الاختيار، ولفعل الوساطة. وهو نقد عميق حقاً. وقد ثبتت أهميته لاحقاً كمحفِّزٍ للعديد من أفكار هايدغر في القرن العشرين.

27. يقول نيتشه في "إنسان مفرط في إنسانيته": ليس هناك من "خيار حر" بالنسبة للقوي. فكلما زادت درجة ثبات الدوافع ازدادت قوة الشخصية. ويقول إنّ: الطبائع العظيمة تحفظ النوع "بشري"، بينما تلك الضعيفة تلتمس تطويره. وهي فكرة تبدو غير متناغمة مع آراء نيتشه حول الإرادات القوية والضعيفة، ما لم تُرَ في ضوء الملاحظة المتعلقة بنسبية الثبات. ويقول في "جينالوجيا الأخلاق": لقد ابتكرت أنماط الضعفاء أو "العبيد" كذبة الإرادة الحرة بحيث يلصقون الذَنب بأسيادهم. فلو كانت الإرادة الحرة ممكنة، لـ"أمكنَ" للأسياد أن يتصرفوا على غير ما اعتدنا منهم. وأنا أعتقد أن التأويل الأعمق لأصل الاعتقاد بالإرادة الحرة يكمن في أنّ: إرادة القوة - في غمار سعيها للهيمنة- هي أصل الإحساس بالإرادة الحرة. ويجب هنا أن

نلاحظ أن نيتشه يعترض على الإرادة الحرة لكنه لا يقول بكون الإرادة "غير حرة" في المقابل أيضاً. فالإرادة "غير الحرة" – مفهومةً كإرادة حتمية أو آلية- تشي بمنظورٍ ميكانيكيٍّ أو نيوتوني مضلِل (تفسيري حتمي) للكون.

28. قد يتساءل القارئ عند وصوله إلى هنا: هل ابتكار مفهوم الإرادة الحرة هو من فعل الطبائع الضعيفة والمنحطة في المزاج الديني؟ أو أن حرية الإرادة هي اكتشاف مفاهيمي جذري أصيل يسمح بمقاومة التدميرية ضيقة العقل في الأرواح المتدينة؟ يبدو أن كازانتزاكيس يكتشف بذكاء غموضاً خلاقاً في قلب الفكر النيتشوي.

29. يقول أرسطو في كتابه "السياسة": "العاجز عن دخول الجماعة الاجتماعية، أو المكتفي بذاته والذي لا حاجة له بفعل ذلك، لن يتمكن من الوجود كجزء من دولة، وهو في ذلك إما أن يكون وحشاً أو إلهاً".

مؤلَّفات نيتشه بالترتيب التاريخي

- من حياتي *1858*.
- عن الموسيقى *1858*
- نابليون الثالث كرئيس *1862*
- القدر والتاريخ *1862*
- الإرادة الحرة والقدر *1862*
- هل يستطيع الحسود أن يكون سعيداً حقاً *1863*
- حياتي *1864*
- مولد التراجيديا *1872*
- الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي *1873*
- ديفيد شتراوس مُعترفاً وكاتباً *1873*
- محاسن التاريخ ومساوئه *1874*
- شوبنهاور مربياً *1874*[55]
- ريتشارد فاغنر في بايرويت *1875*
- إنسان مفرط في إنسانيته *1878*
- المسافر وظله *1879*
- الفجر *1881*
- العلم المرح *1882*
- هكذا تكلم زارادشت *1883-1885*
- ما وراء الخير والشر *1886*
- في جينيالوجيا الأخلاق *1887*
- هو ذا الإنسان *1888*
- قضية فاغنر *1888*
- أفول الأصنام *1888*
- نقيض المسيح *1888*
- نيتشه ضد فاغنر *1888*
- إرادة القوة (مجموعة ملاحظات قدمتها أخته، لا تعبر بالضرورة عن رأي نيتشه) *1901*.

الفهرس

هذا الكتاب هو أطروحة قدّمها الكاتب اليوناني الشهير نيكوس كازانتزاكيس لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، في باريس عام ١٩٠٩م. وقد تناوَل فيها آراء نيتشه حول أسئلةٍ وقضايا هامة عديدة، منها:

ما هي طبيعة الرجل والمرأة حقاً؟ ما هو موقع المرأة من الغريزة الجنسية وفكرة المساواة، والمطالبة بالحقوق؟ ما هو موقعها من العائلة ومؤسسة الزواج وحالة الإنجاب؟

ما هو أصل الدولة وطبيعتها؟ ما موقعها من الأخلاق؟ من العدالة؟ من المساواة؟ من العنف؟ من الأقوياء؟ من الضعفاء؟

ماذا عن المفاهيم الثلاثة الرئيسة التي تحكم الحياة الداخلية والعامّة للبشر والعائلة والدولة: الدِّين والأخلاق ومفهوم الحَق؟

ما هو أصل الأخلاق؟

تلك بعض الأسئلة التي لامستها وقاربتها أطروحة كازانتزاكيس حول منظور نيتشه للحق والدولة. مع إضاءات أُخرى مفيدة عديدة حول طبيعة شخصية هذا الفيلسوف المثير للجدل وزمنه. قد تتنوع حساسياتنا لأجوبة نيتشه على هذه الأسئلة، وقد يختلف كثيرون عليها، ويُصدَم البعض الآخرون من حدّتها وغرابتها، إلا أنّ ما سيُفاجئنا في هذا الكتاب حقاً هو مدى العمق ومستوى الوعي الذي ستستثيره تلك الأطروحات لدينا نحو أسئلةٍ تمسّ كل تفصيلٍ في حياتنا اليومية، الخاصة والاجتماعية والعامة. سنجدُ مع هذا الكتاب أنفسنا فجأةً في خِضَمّ وقلب التساؤلات الأكثر أصالةً وعمقاً، والتي تضعنا وجهاً لوجه مع جوهر القضايا الحاسمة في كل تفصيلٍ من حياتنا وعلاقاتنا.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية ص.ب 1018 هاتف 2422339
9789933592851